# حب من زمن آخر

# حُـب من زمن آخـر

مجموعة قصصية

ديـانـا روز

للنشر والتوزيع
Arabic Library

اسم الكتاب: حب من زمن آخر
اسم الكاتبة: ديانا روز
تدقيق لغوي: محمد إبراهيم
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – ٢٠٢٠ م
رقم الإيداع: 2020 /
الترقيم الدولي:

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة
للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

# الإهـداء

إلى كل من علمني الحب.

تتناثر الكلمات حبرًا على ورق.

لكل من علمني وأزال غيمة الجهل التي ممرت بها.

لكل من أعاد رسم ملامحي التي اختفت وتصحيح عثراتي.

شكرًا لكم و في مقدمتهم أبي.

"كريم".

الكاتبة ديانا روز.

لا بد أنكم سمعتم بقصص الحب الأسطورية، لكن هناك إحدى القصص التي تعتبر من أجمل قصص الحب وأكثرها حزنًا.. سأقصها عليكم بشكل مختصر إذا لم تسمعوا بها من قبل.

وها أنا أبدأ معكم الحكايات بقصة حب أسطورية خالدة لكاتبها العراقي مهند أبو خمرة.

كان هناك فتاة اسمها شمس؛ هي باحثة تاريخية تذهب في يوم ما إلى ساحة القشلة في بغداد لكي تجري بحثًا على المناطق التاريخية، وهناك تلتقي شخصًا يدعى أمير اِدعى أنه حارس القشلة وقد طلب دعوتها للعشاء حتى يخبرها بالكثير من القصص التي تريد الكتابة عنها وتذهب معه على موعد عشاء في الليل ويقص عليها حكاياتٍ لم تسمع عنها من قبل ولم يسمعها أحدٌ من قبل وغفت وهي تستمع إليه لكثرة القصص والحكايات التي قصها، وفي الصباح يأتي إليها رجل عجوز لإيقاضها، فتساله عن الشاب الذي كان معها بالأمس ويقول لها الشيخ العجوز إنها كانت وحدها، ولا يوجد شخص ما يدعى أمير، بل إنه كان يراقبها ليلًا لما كانت جالسة وحدها تتحدث وكأنها تُحدِّث نفسها، ولم يقاطعها ظنًّا منه أنها تعرف ما تفعل، وأكد لها أنه هو حارس القشلة، ولكن شمس لم تصدق كلامه، وهامت تبحث عن أمير وظلت تجري في أروقة المكان باحثةً عنه، وفي أحد ممرات القشلة تجمدت مكانها حين لمحت صورة أمير معقلة على جدار، وقالت للحارس الذي كان يتبعها هو الآخر أن هذا هو أمير، وقال لها الحارس أن هذا هو أمير باشا والي بغداد ومؤسس القشلة سنة ١٨٦٥، وقال لها إنه أحب فتاة، وأعطته وردة مشدودة بقماش أبيض، وقالت له إنها ستأتي له قبل أن تذبل الوردة،

ولكنها لم تأتِ، وظلَّ أمير ينتظر إلى أن مات، ويقال أن روحه ظلت في القشلة لانتظارها.

*****

يقول نزار قباني: "الحب ليس روايةً شرقيةً بختامها يتزوَّجُ الأبطالُ لكنه الإبحار دون سفينةٍ وشعورنا أن الوصول محال".

معه حق؛ فالكثير من قصص الحب التي حدثت على أرض الواقع لم تكن نهايتها الزواج أو السعادة حتى.. الحب شيء جميل، ولولاه لما كان للحياة معنى. من السهل جدًّا الوقوع فيه، لكن من الصعب جدًّا أن ننجح في استبقائه.. قد يقال لنا أن الحياة لن تعاش بالحب فقط وهذه وجهة نظر تستحق أن نقف عندها، لكن من دون الحب لن ينجح أي شيء أصلًا.

الله جل جلاله خلقنا بسبب الحب. خلقنا لأنه أحبنا وأحب أن يشاطرنا هذا العالم بما فيه؛ فلماذا إذن نحن لا نستغل هذا الحب ونتشاطره مع بعضنا بعضًا أيضا؟ الحب في كلِّ شيء، ومن أجل كلِّ شيء.

قالت إحداهنَّ في حديث جرى بيننا عن الحب:

هو علمني كيف أحب، وأنا أعلمه كيف يدوم، لكن لو سألني أحد عن الحب يومًا فسأقول حتمًا "إنه الذي حين استلم منه رسالة يرقص قلبي، وحين يبتسم لي، تضحك روحي، ولما يعانقني يرتجف جسدي، ولما يغيب، أشتاق بجنون، وعندما يعود ترد سعادتي.. هو بكلِّ بساطة يعيد لي الحياة من العدم الحب مثل نفخ الروح في الجسد".

ديانا روز

# القصة الأولى

# قوانينُ الحبِّ:

لا تذهب إلى حيث يأخذك الحب

بل خذ الحب إلى حيث أنت ذاهب.

جلال الدين الرومي

*****

تغير لفافات رجل أربعيني قد احترق بزيت حار لَمَّا كان يحضر العشاء له ولزوجته فانقلبت المفاجأة إلى فاجعة باحتراقه.

تعقم "فيكي" الحروق وتنظفها ثم تضع عليها كريمة خاصة مهدئة للآلام.. وتعود وتلفها بشاش أبيض.. تستمع إلى الحديث الجاري بين الرجل وزوجته السمراء الجميلة. هي تعاتبه على ما فعل وكيف أذى نفسه.

كانت تقول الزوجة لزوجها: "أنت طوال مدة زواجنا لم تدخل المطبخ وتحضر لك كوبًا من القهوة وتأتي لتحضر عشاء مرة واحدة.. انظر إلي أين وصل بك الأمر".

ابتسم الرجل لكل عتاب زوجته وأجابها بهدوء: "كنت أريد أن أفاجئكِ بِعِيد زواجنا.. أن أقدِّم لك شيئًا أنا تعبت بتحضيره، لكن على ما يبدو، مهاراتي في المطبخ ليست كمهاراتي في السرير ".

تبتسم "فيكي" دون أن تتداخل في الحديث فتفهم زوجته وتؤشر له بالتوقف عن الحديث الخصوصي الذي سيذهب إلى مواضيع أخرى.

يستدير المريض ويقول لها: "اعذريني يا حضرة الممرضة، لم أقصد أن أتحدث أمامكِ".

أجابته وهي تلملم أدواتها الطبية؛ فقد انتهت من تضميده وتقول: "لا عليك، سأتركك وحدك مع زوجتك، وعيد زواج سعيد، أتمنى لك الشفاء العاجل".

شكرها وخرجت.. أغلقت الباب وراءها وما زالت تبتسم لما سمعته من الرجل في الداخل وما رأته من خجل على وجه زوجته، وكيف كانت طرفًا في ذلك الحديث.

تلقتها صديقتها "ليلى" الخارجة هي أيضا من الغرفة المجاورة فسألتها:

- ما بك.
- لا شيء.

أجابت "فيكي" ونظرت إلى ساعة يدها؛ إنها الخامسة عصرًا.. حان موعد دورة الأطباء على المرضى في الطابق الرابع وهو الذي تعمل فيه "فيكي"، تفكر أنه سيأتي وستراه.. ستشبع عيناها بلقياه وأذناها بصوت.

تعيش حبًّا من طرفٍ واحدٍ، بل هو أقرب للإعجاب منه من الحب. ما زالت لم تختبر الحبَّ بعد، ولم تتذوق طعمَ العشقِ، لكنها تأمل أن تعيش معه؛ مع فيرناندو الطبيب جراح التجميل الأكثر شهرة في المستشفى العام في نيويورك.

هي من وصفوها ب"ملائكة الرحمة"، ترتدي ملابسها الزرقاء الخاصة، ترفع شعرها مثل ذيل حصان حتى لا يزعجها عندما تقوم بعملها، تضع حول رقبتها شريطًا يحمل اسمها ونوع عملها.

الممرضة.. فيكتوريا ديلانوس.

قسم الجروح والحروق.

مستشفى العام في نيويورك.

فيكتوريا.. الكلُّ يناديها "فيكي"؛ فتاة شقراء بعيون عسلية دافئة جدًّا، محبوبة كثيرًا، هي فعلًا بلسم للجروح، ومهدئ للجراح. كل من يتعرف إليها لا يستطيع مقاومة حبها واحترامها. تعمل على مدار الساعة بنشاط، ولا تفرِّق بين مريض وآخر. تعشق عملها جدًّا لأنه يفسح لها الطريق بأن تتعرف إلى أناس جدد وتكون وسيلة لراحتهم.

انتهت لتوها من مريضها السابع هذا اليوم.. ذهبت لتأخذ استراحة قصيرة.. اشتهت كوبًا من القهوة الساخنة. كانت واقفة أمام ماكينة صنع القهوة وهي تنتظرها لتأخذها وتشرب. لما فتح باب الغرفة، كان الدكتور أليكس وبيده ملف يخبرهم أن هناك حالة عاجلة، ويجب عليهم التدخل فورًا.. وطلب فيكتوريا بالاسم أن تساعده على الرغم من وجود غيرها، وهي كانت في استراحتها.

لم تشتكِ قط، ولكنها اِنصاعت بسرعة للأوامر وجرت خلفه إلى المريض الذي أتى بحروق من الدرجة الثالثة ببخار الماء.. يبدو من ملفه الذي قرأته وهي ذاهبة إليه أنه يعمل في محطة لتوليد الطاقة ببخار الماء، وحدث انفجارأدى إلى احتراقه.

تدخل الطبيب بسرعة بمساعدتها وبدأوا بتنظيف الحروق أول الأمر، ثم طلب الدكتور أليكس بأن يخبروا الدكتور فيرناندو أن يأتي ويلقي نظرة على

جروحه أيضا، قد يحتاج إلى خبرته في مجال التجميل وترقيع الجروح وخاصة التي تتسبب بها الحروق.

لَمَّا سمعت "فيكي" اسم فيرناندو، شعرت بسعادة وتوتر لأنها دائمًا ما تتوتر حين تكون بجانبه، أو تسمع عنه.. لكنها فرحت لأنها ستراه على الأقل.

بعد أن اِنتهت من فعل الأمور الآزمة وإعطاء المريض جرعة من المسكنات لتخفيف آلامه، حوَّلوه إلى غرفة خاصة في الطابق الرابع الخاص بقسم الجروح والحروق.

استقل أليكس وفيكي المصعد معًا.. حين قال لها: "منذ كم سنة ونحن نعرف بعضنا يا فيكتوريا؟".

أجابت هي: "منذ أن كنَّا في المدرسة يا دكتور".

قال لها: "فعلًا.. انظري إلى الوقت، كم سنة مرت علينا وأنا أعرفك جيدًا جدًّا".

قالت باستغراب: "كيف يعني؟ لم أفهم.. ماذا تعرف عني؟".

لم يجبها لأنه خرج بعد أن توقف المصعد بهم.. لحقت به لتفهم ما الذي يقصده، لكنها توقفت عن الجري بعد أن رأت أحلامها أمام عينيها.. تمشي وهي ترتدي مريولًا أبيضَ وحول رقبته سماعاته الطبية.. أحلامها على هيئة دكتور فيرناندو.

وقف مع أليكس يتحدثون حول المريض الذي تم إسعافه للتو يتناقشون فيما بينهم عن إمكانية تخفيف التشوُّه الذي حدث له في جزء من وجهه السفلي ورقبته.

ينظر الاثنين إلى الصور التي في يديهم وهي تنظر إلى فيرناندو، مأخوذة

بحديثه وحركاته. تنظر إلى شفتيه التي يتكلم بها، عن سحره العجيب في جذب انتباه أي امرأة وبسهولة. تراقبه كأنها تشاهد مقطعًا من إحدى الأفلام بالسرعة البطيئة حتى تنعم بأكبر وقت من مشاهدته. وكم هي عشيقاته ومعجباته. نصف ممثلات هوليوود أتين ليجعلهن أجمل حين يحط بعض من لمساته عليهن. والآن وهو منذ شهور يخرج برفقة "بيلا" راقصة الباليه الشهيرة. وهي ترافق أحلامها فقط.

قاطع تفكيرها الشارد أليكس وقال حين نده عليها: "فيكتوريا.. نحتاج إليكِ الآن".

أومأت برأسها مبتسمة.. كيف لا تلبي الطلب وهو سيجعلها قريبة من فيرناندو هكذا؟

ذهبت خلفهم، وهم يتقدمونها بخطوة واحدة.. دخلوا ثلاثتهم إلى غرفة المريض وبدأوا يشرحون له الخطة القادمة في مساعدته على إعادة جسده كما كان أو على الأقل بأقل تشوهات ممكنة.

ولما انتهوا، عاد فيرناندو إلى عمله، وبقي أليكس يكتب بعض الملاحظات في ملف المريض.. تقف بجانبه "فيكي" وهي ما زالت تتبع بعينيها فيرناندو، فقال أليكس ودون أن يرفع عينيه من على الملف: "هل يعجبك".

استدارت إليه قائلة: "من؟ ماذا؟ كلا".

أغلق أليكس الملف وقال لها: "لا تكذبي يا فيكتوريا.. لو كان بيدك لكنت تبعته الآن.. أعلم جيدًا أنك معجبة بفيرناندو، لكن ليس لديك الفرصة بوجود ساحرات من حوله".

قطبت حاجبيها؛ فهي تكره حينما يناديها بفكتوريا، وهو الوحيد الذي يناديها هكذا، ثم إنه يتدخل في شيء لا يعنيه فقالت:"أرجوك يا دكتور أليكس، لو كنت تعتقد أن معرفتنا القديمة تعطيك الحق في التدخل بحياتي، فأنا لا أسمح لك".

كادت تبتعد لما توقفت فجأة حين سمعته يقول: "أستطيع مساعدتك بالحصول على ما تبتغين".

فكرت لثوانٍ.. استدارت، وقالت: "ما الذي تقصده".

أجاب هو بينما يتقرب منها وهمس بأذنها: "سأعلمك كيف توقعينه بحبك لو وافقتِ أو على أقل تقدير سأجعلك تجذبين أنظاره نحوك".

قالت بتردد: "كيف؟ ولمَ أثق بك؟".

أجابها: "لأني بكلِّ بساطة أريد أن أساعدك.. كما ساعدتِني يومًا ما.. ما زلت أذكر.. لم أنسَ عرفانك".

قالت: "لا أدري.. لست مقتنعة".

قال: "تعرفين عنوان بيتي، لم يتغير منذ أيَّام المدرسة.. لو غيرت رأيك سانتظرك غدًا مساءً عند السادسة عصرًا".

تركها ومر من جانبها.. كانت تفكر بما قاله للتو وكم تريد أن تحصل على حلمها.. أن تمسكه بيدها.. ثم تذكرت المساعدة التي تحدَّث عنها أليكس لتوِّه. قالت في سرِّها "ما زال يذكر ذلك اليوم حتى الآن".

*****

كانت "فيكي" تفكر طوال الوقت بما تبقى من يومها بالاقتراح الذي طرحه عليها أليكس، هي محتارة جدًّا كيف له أن يعرف بماذا تفكر ولا حتى أقرب الأصدقاء إليها.. لم يشعر بما تحمله بداخلها اتجاه الدكتور فيرناندو. غضبت من نفسها لأنها كانت واضحة إلى درجة أنَّ شخصًا مثل أليكس استطاع قراءتها.

هل تثق به؟ هل تفعل ما يقوله وما سيقوله لو وافقت على الأمر الذي تحدثا به؟

أيعقل أنه كان يمزح وبغبائها قلبت مزحته لحقيقة حينما بان على وجهها ما كان مخبئًا؟ صحيح هي تعرفه منذ زمن بعيد وبينهما حكاية لم تعتقد أنه يتذكرها إلى هذا اليوم.

عادت بذاكرتها اثنتي عشرة سنة إلى الوراء قبل نهاية السنة الدراسيَّة.. كان أليكس أحد أذكى التلاميذ في فصلهم، وكان شخصًا اِنطوائيًّا بعض الشيء.. تعمد البعض من الطلاب الآخرين أن يزعجوه ونجحوا في ذلك حين لكم واحدًا منهم وحدث شغب بينهم، وبعد أن سمع مدير المدرسة كاد يعاقب أليكس، ويخسر المنحة المقدمة إليه ليدرس الطب لما وقف الجميع ضده، فما كان من فيكتوريا إلا الذهاب وإخبار المدير بالحقيقة، وتم استدعاء الجميع وأرغمهم على أن يعتذروا له.. كلفها ذلك وقتها.. هجرها من قبل حبيبها رئيس الشلة آنذاك، ولم تحضر حفلة تخرُّج الدفعة، لكنها الآن تفتخر بما فعلته وقتها؛ فالوقوف بجانب الحق فضيلة، والتنمر أمر تودي نتائجه إلى أمور خطيرة، وخاصة بين الأطفال والمراهقين، وكم من قصص سمعت عنها كانت نهايتها كارثية، والسبب كان التنمر.

أغمضت عينيها وارتمت إلى السرير.. لم تعد تستطيع التفكير.. لتنام.. فكرت وبعد أن ترتاح سيكون اتخاذ القرار بذهن صافٍ أفضل من ذهن متعب متشوق لنوم عميق.

غفت من شده تعبها، لكنها استيقظت فجرًا على صوت سيارات الإسعاف وهي تمر من القرب من بيتها.. شعرت بالعطش.. قامت لتشرب الماء.. دخلت إلى المطبخ بعينين نصف مغلقتين.. وضعت لها في كاس ماء وارتشفت. لم تعد إلى غرفتها، كان جسدها أكثر ثقلًا، وقدماها لم تحملاها، حتى السرير ارتمت بكلِّ بساطة على الأريكة في الصالة، وعادت إلى النوم مرة أخرى، لكنها نهضت مرة ثانية عندما رن منبه الصباح مشيرًا إلى الثامنة صباحًا.

صحت وهي تلعن نفسها لأنها نسيت أن توقف المنبه، لانَّ اليوم يوم عطلتها، وكانت تتمنى لو تتأخر في الاستيقاظ، لكن فات الوقت على هذا.

كان جسدها متشنجًا لأنها أكملت نومها على الأريكة.. تثاءبت، ومطت عضلاتها ففرقعت فقرات عنقها، ثم نهضت ذاهبة إلى الحمام.

الساعة التاسعة.. غيرت ملابسها بملابس رياضية استعدادًا للرياضة.. أغلقت باب منزلها، ووضعت هاتفها الخلوي في جيبها تربطه بسماعات على أذنيها، وانطلقت تركض في الحي الذي تسكن فيه.. ألقت التحية على بعض الجيران.. وأكملت المسير.

تحب الرياضة وتزاولها كلما سمحت لها الفرصة.. تستشعر الهواء البارد الذي يدخل إلى صدرها. بنسمات صباحية، وخاصة في فصل الخريف، والأشجار التي تتلون بالأصفر والأحمر والبرتقالي بعضها يتغير إلى البني والبنفسجي.. تبدأ لفحة

الهواء البارد المنعش في ساعات الصباح الأولى.. تعشق نيويورك في الخريف.. تأخذها أقدامها إلى المنتزه القريب منها.. إنها تجري منذ ساعة تقريبا.

تنظر إلى ساعتها، وتشعر بالجوع، تعود أدراجها لتحضر لنفسها طبقًا من البيض المخفوق بالخضراوات المفضل عندها. تنتهي لتأخذ دشا يزيل عنها عرق الرياضة وتعب النهار السابق.

حياتها روتينيه جدًّا؛ ليس فيها أي جديد منذ زمن طويل.. الشيء الوحيد الذي تغير هو لما انتقل فيرناندو إلى المستشفى الذي تعمل فيه قبل عام، ومنذ ذلك الوقت وهي تحلم به.

لا يخلو يومها من إزعاج أليكس لها بالطبع، حتى فكر البعض أن بينهم عداوة أو شيئًا من هذا القبيل، ولكنهم لا يعرفون أن طبعه هذا منذ زمن.. والآن عادت لتفكر بأليكس.. كانت قد نسيته تمامًا، لكن كيف تنسى ما طرحه عليها.. نظرت إلى الساعة المعلقة على جدار المنزل.. تشير الساعة إلى الثالثة عصرًا.. لقد أخبرها أن تلتقيه بالسادسة.. هل تذهب؟ هل تنسى ما قاله وتبقى تنتظر أن يتلطف الله عليها ويجعل فيرناندو يلتفت لها؟ هل تسمع كلام أليكس وتثق به؟

لما تثق به، هل فعلًا يريد مساعدتها لأنها ساعدته يومًا ما، لكنها ليست واقعة في مأزق يهدد حياتها.. إنها فقط معجبة بفارس أحلامها، وهو لايعرف هذا، بل قد لا يكون قد انتبه لها أصلًا، حتى إنه يخطئ باسمها في الكثير من الأحيان.

فكرت أكثر، وتوصلت إلى أنها لو ظلَّت هكذا لن تصل إلى مبتغاها وهي بالفعل تحتاج إلى المساعدة، وأليكس عرض عليها ذلك وهو الوحيد الذي فهم ماذا تخبئ.. كيف فهم؟ ليس مهمًا الآن، بل هل فعلًا سينجح في جعلها تجذب نظر

فيرناندو لها.

لم تتحمل أن تنتظر حتى السادسة.. الساعة الرابعة والنصف عصرًا.. ها هي تقف أمام منزل أليكس القديم.. إنه كما هو تقريبًا؛ الطلاء الخارجي قد تغيَّر بعض التعديلات الصغيرة في الحديقة الأمامية.

ابتسمت.. كم عاشت من ذكريات كثيرة في هذا الحي، بيتها القديم الذي عاشت فيه طفولتها على بعد بضعة بيوت انتقلت إلى مكان أقرب من المشفى الذي تعمل فيه حتى لا تخسر وقتًا كثيرًا.

وبينما هي غارقه في التفكير والذكريات، قاطعها عن شرودها صوته وهو يقول: "لم أتوقع أن تأتي مبكرًا هكذا.. لا بد أنك كنت فعلا تحتاجين إلى طوق نجاة، والحمد لله اني موجود".

استدارت إليه.. جعلها تندم بالفعل لأنها أتت.. نظرت نحوه عاقدة حاجبيها.. تمتمت في نفسها قائلة: "كنت مخطئة جدًّا لأني صدقته لا يريد إلا اِستفزازي، وأنا الغبية صدقته".

استدارت، وكانت سترحل وتعود إلى منزلها.. لما ركض خلفها وأوقفها.. أدارها إليه وقال: "هل تستسلمين من البداية.. كنت أمزح. لا تحبين المزاح أبدًا.. هذا ليس جيدًا".

أفلتت يدها من قبضته وقالت: "لما تتعمد إزعاجي.. ماذا فعلت لك؟".

قالها ضاحكًا: "لأنك تنزعجين بسرعة.. لم تقاوميني مرة على الأقل، لكن ليس هذا حديثنا.. لقد أتيت إلى هنا يعني انك توافقين على مساعدتي".

أجابت: "لا أدري، لم أعد واثقة.. أعتقد أنني سأعود؛ هذا أفضل".

قال: "جربي لشهر واحد فقط.. إذا لم يحدث أي تطور، لن تكوني قد خسرتِ شيئًا، وإن حدث، ستربحين فيرناندو.. ما رأيك؟".

كان يشجعها أن تقبل بالاتفاق وهي سلمت بالأمر.. لن تخسر شيئًا فعلًا.. كلُّ ما يحدث أنها ستقضي وقتًا أكثر مع أليكس، ويجب عليها أن تتحمل سخافاته وإزعاجاته لها.. إنها تفكر بكلِّ جدية بالنظر إلى الكأس من الجهة المملوءة، لا الفارغة.

أدخلها إلى منزله ورحب بها بكوبٍ من القهوة مع بعض الدونات التي كان قد اِشتراها منذ وقت قريب من ذلك اليوم.

جلست بصمت تتلفت بعينيها إلى المكان.. لم تدخله من قبل.. حتى لما كانت تعيش بنفس الحي.. أمه كانت امرأة، طيبه لكن والده كان رجلًا قاسيًا بعض الشيء.. توفي بمرض تليف الكبد، سببه الكحول، قبل عدة أعوام.. كان أليكس لا يزال يدرس في كليه الطب، وبعدها بسنتين، توفيت والدته ولم يتبقَ له أحد. وكان ولدًا وحيدًا لا إخوة له.

قال لها: "لنبدأ بالدرس الأول حتى لا نضيع الوقت".

أجابت متشوِّقة للسماع: "كيف وبماذا نبدأ؟".

أعطاها كتابًا كان موضوعًا على الطاولة وقال لها: "لديك ثلاثة أيام لتقرئي هذا الكتاب وتفهميه جيدًا، ثم تأتي إلي في اليوم الرابع لنتناقش فيه وإذا كان لديك فضول بأمر ما سأجيبك، ثم نبدأ بمرحلة أخرى".

أخذت الكتاب من يده و قالت باستغراب: "بماذا يساعدني؟".

أجاب بكلِّ سهولة: "سيجعلك تفهمين كيف تفكر الرجال، وهذا سهل جدًّا مقارنة بالرجال الذين يسعون لفهم المرأة".

قالت غير موافقة على كلامه: "أنتم الرجال هذه حجتكم لا تفهمون المرأة، النِّساء لا يحتجن لكتب أو أبحاث لتفهموهن، النِّساء لا يحتجن إلا للحبِّ والاهتمام والعطف".

"والكثير من النقود".. أجاب أليكس.

قالت: "لا، ليس كلهن قد تكون مَن تعرَّفت أنت إليهنَّ، لكن ليس جميعهن.. لا تخلط الأوراق يا أليكس.. ليس كلُّ النِّساء مثل بعضهن بعضًا، والقاعدة تنطبق على الرجال أيضا".

تعجَّب من ردِّها.. ابتسم.. كانت تتحدث بكلِّ عفوية ودون تثقل أو تمثيل، لكن بهذه الطبيعة البسيطة، لن تحصل على مرادها، بل بالعكس ستتألم كثيرًا.

قال لها: "إذن يجب علينا أن نُغيِّر من طريقة تفكيركِ وتحدثكِ أيضا.. يجب أن تكوني أكثر غموضًا وتعقيدًا.. بخطوات ثابتة سيأتي كلُّ شيءٍ على حدة، المهم أنهي الكتاب وأراكِ بعد ثلاثة أيَّام".

أومأت برأسها، لا تعرف ما الذي يقصده، وأخذت الكتابَ وضعته في حقيبتها، ثم غادرت مسرعة لتعود إلى المنزل وتقرأه.

"في بعض الأحيان يجب على الرجل أن يشعر أنه سيخسر أمرًا ما، أو أنه على وشك خسارته ليعلم قيمته، وكم يعني له".

مقتبس.

*****

"يقدر الرجال عندما تعاملهم النساء على أساس أنهم رجال، ومجرد شعورهم أنها بحاجة إليهم، يملؤهم بالسعادة. الرجل بحاجة إلى أن يشعر أنك بحاجة إليه ليتمكن بالقيام بواجبه الفطري تجاهك كرجل".

مقتبس.

*****

لثلاثة أيَّام وهي تقرأ الكتاب ذا الصفحات الممتلئة بالنَّصائح التي إذا طبقتها المرأة فسوف تنجح بالتَّأكيد؛ بالحصول على رجلِ حياتها أو إبقائه بجانبها.

لثلاثة أيَّام وهي تقرأه في كلِّ فرصة تسمح لها كأنها تراجع لامتحان مهم، ولا بدَّ أن تأتي بتقديرٍ عالٍ فيه كي تتحول إلى المرحلة القادمة، حتى زميلاتها في العمل تساءلن "لمَ تقرأ هذا الكتاب خاصة". فكانت تجيب أنه هدية، ولم يكن هناك وقت لقراءته.

انتهت المدة التي قررها أليكس وها هي فيكتوريا تقف للمرة الثانية أمام عتبة منزله خطوة للأمام وخطوة للخلف؛ لا تزال مترددة، لكنها لمت شجاعتها وضغطت على جرسِ المنزل.. ما هي إلا ثوانٍ وكان أليكس فاتحًا الباب، مُرحِّبًا بها، وبيده كأسٌ من الشراب.

دخلت وجلست كما طلب منها، ثمَّ سألها إن كانت تريد أن تشاركه في الشراب.. رفضت شاكرة، وبعدها جلس أمامها على كرسي في الصالة وقال: "هل أكملتِ الكتاب كلَّه؟ وماذا فهمتِ؟".

تنفست فيكي بقوة وقالت: "بصراحة لم أكن أدري بوجود هذا الكم الهائل من المعلومات، والاختلاف الكبير بيننا؛ نحن الرجال والنساء".

ابتسم أليكس وعاد بجسده إلى الخلف وكأنها أثنت عليه، لا على الكتاب وقال: "ألم أخبرك بذلك؟ ما علينا.. الأهم أنك فهمتِ ما يقوله الكاتب هنا. والآن، يجب عليكِ تطبيق هذا بالحرف، وأن تتذكري دائمًا ما قرأتِه، لكن بالطبع تحتاجين إلى دروس أخرى لأنكِ لن تعتمدي على الكتاب فقط".

كانت تعرف أنَّ أليكس ذكي، لكنها لم تكن تعرف أنه فيلسوف أيضا. ابتسمت وقالت: "وانا مستعدة لأي شيء يكفي أن أجذب انتباه فيرناندو".

نهض وهو يقول: "أحسنتِ، يجب أن يكون لديكِ هدفٌ، وأن تفعلي المستحيل لتحقيقه، والآن أخبريني، كم مرة تذهبين إلى صالون التجميل".

استغربت فيكي؛ ما علاقة هذا بذاك.. قالت لما أجابها: "لأنني أرى صديقًا لي يجلس أمامي، لا امرأة جميلة شقراء".

أجابته: "ما الذي تقصده؟ يبدو أني مُخطِئة فعلا بالوثوق بك! أنت تقلل من شأني هكذا!".

أجابها وهو يتقرب منها رافعًا الدبوس الذي كانت قد ربطت به شعرها ككعكة فوق رأسها وقال: "انظري إلى شعرك.. كم هو جميل! دائمًا ما أراه مربوطًا.. أنت امرأة فاتنة، لكنكِ لا تهتمين بنفسكِ.. عيناكِ رائعتان، حتى عطرك

أخَّاذ، لكن هذا لا يكفي إذا لم تهتمي بمظهرك أكثر.. يكفي أن يبقى شعركِ حرًّا، وسترين الفرق.

توترت هي من قربها له. كان يتحدث وهو ينظر إلى داخل عينيها بعمق وحنو.. نظرة غريبة جعلته يتخلل إلى جلدها. تشعر بقشعريرة تتسلل إلى كامل جسدها. تعرَّقت يداها، وزادت نبضات قلبها.. كيف لم ترَ هذا الجانب المخفي منه من قبل.. تقاربت الأنفس وهو لا يزال يتمعن في تلك العيون.. لما دفعته فيكي عنها وأرادت النُّهوض غاضبة قائلة: "ما الذي تفعله؟ هل كنت تستغلني لتتسلى بي أم ماذا؟ كلُّ مرة أكرر لنفسي أني مخطئة بالقدوم إلى هنا والوثوق بكَ وأنتَ تزيدُ من شكوكي أيضا".

استدارت لتبتعد، وتوقفت حين قال لها: "وهذا هو الدرس الثالث أن تؤثري في الرجل بعينيكِ.. هل كنتِ تعتقدين أني كنت أستميلكِ نحوي أو كنت أريد أن أطارحكِ الفراش مثلًا.. لا.. أبدًا.. لستِ من نوعي المفضل، لكني كنتُ أعلِّمكِ كيف تجعلين رجلًا يرغب بكِ، ولا يصل إليكِ إلا حينما تريدين أنت".

جلست فيكي بعد أن سمعت هذا الكلام، وأكملت الدرس حتى النِّهاية، واتفقا على موعد جديد.

بدأت هي تفعل كلَّ ما يقوله لها.. غيَّرت من مظهرها ومشيتها.. غيَّرت من طريقة كلامها. وكلُّ مرةٍ يراها فيها فيرناندو يرغب بالتحدث معها أكثر، والبقاء معها أطول، ويبدو أنَّها بدأت تنجح في جذب انتباهه، ليس هو فقط، بل زملاؤها أيضا، وهي كانت لا تزال تأخذ دروس الحب من أليكس، حتى جاء الوقت الذي تنال فيه فيكي ما زرعته كلَّ هذا الوقت وهذه الأسابيع لَّما دعاها فيرناندو أن

تكون رفيقته من أجل حفلة لجمع التبرعات للمشفى، ولم تصدق حينها أنها وأخيرًا ستظهر برفقته. وافقت، ولكنها ذهبت رأسًا لإخبار أليكس. فتحت الباب بعجل من دون حتى أن تطرق الباب، ودخلت. رفع عينيه ليراها واقفة أمامه. ابتسم وقال: "خيرًا يا فيكتوريا؟ ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟".

أجابت بنَفَسٍ متقطع: "لقد داعاني إلى الحفلة.. سأكون برفقته في حفلة المستشفى".

ابتسم بزيف وقال: "وأخيرًا حدث ما أردته، لكنَّ هناك أمرًا آخر يجب أن تتعلميه مني".

قالت: "وماذا يوجد بعد ذلك؟ لقد طلبني لرفقته؛ أكون هكذا نجحت".

قال: "النَّجاح ليس في حصولك عليه، النَّجاح هو استبقاؤه بجانبك.. تعالي اليوم أيضا لأخبرك ما الذي عليكِ فعله حتى يصبح لكِ، وألَّا ينظر إلى أخرى بوجودكِ".

هزت برأسها موافقة، وخرجت من غرفته.. كانت سعيدة جدًّا لأنها حصلت وأخيرًا على مبتغاها.. خطوات فقط وستجعله يعترف بحبه لها.

تجد نفسها تجلس مرة أخرى من مرات عديدة في ذلك الصالون الذي كلما تخرج منه وهي محملة بدروس تصل إليها بطريقة مدهشة لأنَّ معلمها مدهش رائع، يجعلها تشعر بشيءٍ غريب كلما تحدث إليها كلما تقرَّب منها بحجة ما.

تتوتر كلما تضع قدمها إلى داخل هذه الصالة، مثلما تتوتر كلما حدث وتلامسا هما الاثنان من قصد أو دون قصد، ويكون هو معظم الأحيان يقصد لمسها. يعجبه حين تتورد وجنتاها وتتلعثم بالكلام. يسعد جدًّا حين يراها ترتجف وتبلع

ريقها كلما تقدَّم منها. أكثر ما يغريه هو نظراتها الخجولة وهي تزيحها كلما تقابلت عيناهما.

كان الوقتُ مساءً، والسماءُ صافية حين طلب منها أن يجلسا بالحديقة الخلفية. أخذ معه قنينةً من النبيذ الأحمر وكأسين وضعهما على الطاولة القريبة من مكان جلوسهما، وقال: "لنحتفل إذا بتَّحقيق أول خطوةٍ لكِ".

ابتسمت ووافقت. قدَّم لها الشراب وارتشفت. كانت عيناه تراقبانها، ولمَّا أمسكته بالجرم المشهود، أزاح نظره، ورفعها إلى السَّماءِ وقال: "النُّجوم جميلة هذه الليلة! أليس كذلك؟".

قالت: "بلا.. حتى هذا الهدوء رائع! أحب هذه الأجواء".

أجابها: "أعلم".

استغربت! من أين يعلم؟ لكنها لم تسأل حتى لا يفاجئها بالجواب، لكنها قالت: "بما أننا اِحتفلنا بنجاحي الأول، ما هو الدرس الآخر؟".

قال لها وهو يصب له كأسًا أخرى من الشراب الأحمر: "يجب عليكِ أن تشعريه أنه بطلك.. أن تشعريه أنكِ تحتاجين إليه دائمًا. حتى لو لم تقولي له، يجب عليك أن تفهميه أنكِ امرأة تحتاج إلى سندٍ، وأنه هو هذا السند الذي تعتمد عليه.. أن تكون لمساتك تترجم ما بداخلك دون أن تقولي شيئًا".

أجابت هي: "كيف؟ لم أفهم".

قال وهو ينهض من الكرسي واضعًا كأسه على الطاولة: "اِنهضي وقفي أمامي.. هيا.. اِنهضي.. اسمعي لما أقوله".

نهضت.. تقدَّم منها وقال هامسًا: "اِلمسيني.. تخيلي أنني فيرناندو.. أغمضي عينيكِ، وتخيلي لو كنتُ أنا هو، ما الذي كنتِ ستفعلينه".

وقفتْ لثوانٍ تنظر إليه، ثم أغمضت عينيها. رفعت يدها وأخذت تلمسه وهو متجمد لا يتحرك.. إنه يراها بالقرب منه هكذا قطعة من الحلوة الشهية التي لا يشبع بالنَّظر إليها أبدًا. لم يرَ بحياته امرأة مثلها قط.. لم يتحمل هذا القرب أكثر.. لا يتحمله.. قاطعها بصوته وقال: "أنت متشنجة.. لن ينفع هذا الذي تفعلينه.. يجب أن تكوني أكثر خفة.. يجب على لمساتك أن تكون أكثر حنية ومليئة بالرغبة.. الرغبة التي تشعل دواخل الرجال.. أن تجعليه يرغب بكِ أكثر كلما يكون قريبًا منكِ. قالت وهي ممتعضة: "لكن هذا ليس حبًّا.. أريده أن يحبني".

أجاب: "نحن الرجال يختلف حبنا عن النساء، لكن سأساعدك على الفهم".

لفها بيده، ووضع إحدى ذراعيه خلف ظهرها يشدها إليه بكلِّ لطف، ثم بدأ يمرر بيده الأخرى على ذراعها بكلِّ هدوءٍ. يهمس بأنفاسه الحارة خلف أُذنيها.. لم ينطق بكلمة واحدة.

إنه يعرف كيف يتعامل مع جسدها.. كأنه يضغط على كلِّ مواقعِ التَّحسس فيها. يعرف أين بالضبط يرخي قبضته، وأين يشدها، وهي تذوب تدريجيًّا بين يديه. تغمض عينيها الذابلتين.. وتتقرَّب أكثر منه.. يحدثُ ما لم يكن في الحسبان، أو يحدث ما كان يجب أن يحدث.. تتقابل الشفاه فيقبِّلان بعضهما بعضًا، لكنَّها تغضب فجأة.. تبتعد عنه، ثم تصرخ قائلة: "هل هذا ما كنت تريده؟ هل تراني لقمة سائغة لأني جاريتك؟ كيف تُقبِّلني؟ كيف تجرؤ على ذلك؟".

يمسح شفتيه كأنه يمسح الجرم الذي قام بفعله للتو.. يتأسف منها قائلًا: "أنا لم أقصد.. آسف، يبدو أننا تمادينا نحن الاثنين؛ فلم أقبِّلك وحدي، قبَّلتِني أنا أيضا".

أجابت هي: "لا تفعل يا أليكس.. أنت تعلم أني أريد فيرناندو".

قال لها مبتسمًا: "ويبدو أنَّكِ ستحصلين عليه إذا سمح الأمر وقبَّلتِه هكذا.. ستحصلين عليه بالفعل. رجلٌ مثل فيرناندو تجذبه النِّساء الاتي يعرفنَ كيف يعاملنه، وأنتِ أصبحتِ واحدة منهن". نظرت إليه.. لم تُفسِّر النَّظرة التي في عينيه..

أخذت حقيبتها وقالت: "هذه آخر مرة آتي فيها إلى هنا".

خرجت مسرعة، ولكنها كانت هذه المرة مختلفة جدًّا؛ لم تكن مثل المرَّاتِ الَّتي سبقت.. كان خروجها ناقصًا.. لقد تركت جزءًا منها هناك.. توقفت فجأة، واِستدارت إلى المنزل بعد أن اِبتعدت عدة خطوات.. رأته واقفًا في النَّافذة.. كان يراقب ذهابها بكلِّ هدوءٍ.

*****

موسيقا كلاسيكيَّة تعزف بالخلف همسات وضحكات، وتبادل ابتسامات هنا وهناك.. وهي قد أتت مع حلمها.. حلمها الذي أصبح حقيقة في نهاية الأمر. ترتدي فستانًا من الستان، وبجانبها فيرناندو ببدلته السموكن السوداء.. يتحدث عن نفسه بما يقارب الساعة تقريبًا، وهي تستمع بكلِّ هدوء له.. لا تريد أن تستيقظ من حلمها أبدًا.. ما زالت غير مصدقة.. حين دخلت إلى الحفل تشبثت بذراعه.. الأنظار كانت عليهما منذ لحظة دخولهما للصالة، لكنها كانت بين وقتٍ

وآخر تلف بعينيها باحثة عن رجلٍ آخرِ تنتظر قدومه ليرى بعينيه انتصارها.

يبتعد فيرناندو مستأذنًا إيَّاها أن يذهب ويتحدث مع أحد الجراحين المتخصصين في التجميل، فتأذن له ليسمح لها الوقت بالذهاب إلى ليلى صديقتها، وتسألها عن أليكس وتقول: "ليلى، تبدين جميلة جدًّا".

أجابت صديقتها وجاملتها بالمثل وقالت: "وأنتِ لا بأس بكِ.. كانت مفاجأة لما دخلت بين ذراعي الدكتور فيرناندو".

ابتسمت وقالت: "لقد دعاني ووافقت.. ليس بالأمر المهم".

كانت تخبرها بعكس ما تشعر به حتى لا تكشف مشاعرها لأحد.. اِحتفظت بها لمدةٍ طويلةٍ، وستحافظ عليها حتى تتأكد فعلًا أنهما قد ينجحان بعلاقتهما، أو ما تفكر هي به، لكن كان الفضول يقتلها لمعرفة أين هو أليكس؛ لتسألها عنه وقالت: "يبدو أنَّ الدكتور أليكس ليس موجودًا.. عادة هو من يلقي كلمة الحفل.. هل تأخر أم ماذا؟".

أجابتها ليلى وكأن فيكتوريا لا تعلم ما حدث له؛ فلم تكن قد عملت هذا اليوم، ولا تعرف شيئًا لما حدث هذا الصباح وقالت: "صحيح، لا تدرين ما حدث، لقد عُرِّض الدكتور أليكس لحروق في يده إثر سقوط مادة حارقه اليوم في المختبر، وكان يتألم بشدة.. تم إسعافه، وعاد للمنزل كي يرتاح، حتى طلب إجازة لشهر، وهذه ليست من عاداته أبدًا.. لم يأخذ من قبل إجازة أكثر من يومين، وكان معظمها من أجل أعمال طبية".

تعجبت فيكتوريا غير مصدقة؛ لقد فاتتها الكثير من الأحداث، لكنها حزنت جدًّا لما حدث لأليكس.. كانت تريد أن تتصل به، لكنها أغلقت الهاتف قبل أن يرن.

تصادمت عيناها مع فيرناندو الذي ما زال واقفًا يدردش مع طبيب آخر.. ابتسم من بعيد لترد له الابتسامة، لكن هذه المرة كانت باردة، دون إحساس.. فكرت للحظة في نفسها وقالت: "هل هذا ما تمنيته؟ هل هذا ما أريد أن أفعله في حياتي كلها؟ سأحاول دائمًا أن أجذب نظرَ فيرناندو إلي.. هل أنا سعيدة حقًّا بانتصاري هذا؟ أأثبتُّ لنفسي أني امرأة يرغبها الجميع وأني أستطيع الإيقاع بأيٍّ كان؟ لكن هذا كله تمثيل.. ليست حقيقتي؛ أنا لست هكذا.. أحبُّ نفسي وأنا أتعامل على سجيتي وطبيعتي.. لا أريد أن يكون شعري مفتوحًا لأغري به أحدًا.. ولا أريد لجسدي أن يهيِّج مشاعرَ أحدٍ، ولا لهمسي أن يثير رغبةَ أحدٍ.. أريد أن يحبونني كما أنا بمحاسني وسيئاتي".

لقد تلقت الدرس حين كانت تنظر، وتتمعن في النَّاس من حولها.. المظاهر الكثيرة والأقنعة التي لا ينفك النَّاس أن يستبدلوها كلَّ مرَّةٍ، ومع كلِّ شخص جديد. هي ليست كذلك، ولا تنتمي لهم.. إنها امرأة لرجل واحد يعرفها كما هي، وكما كانت وستبقى.

أخذت حقيبتها وخرجت تجري.. لاحظ فيرناندو خروجها المستعجل؛ فلحق بها.. صرخ مناديًا اِسمَهَا.. توقفتْ.. اِستدارتْ، وتقرَّبتْ منه، وهو منها، في عينيه عتابٌ، وقال: "هل تغادرين يا فيكي".

ابتسمت وقالت بكلِّ هدوء: "اسمح لي، لقد طرأ شيءٌ، ويجب أن أخرج، وشكرًا لأنك دعوتني.. أنا ممتنة لكَ".

قال متسائلًا: "إلى أين؟".

أجابت: "إلى مكان يجب أن أكون فيه.. إلى مكان أنتمي إليه حقًّا".

كان سيرد، لكنها كان قد استدارت ترفع فستانها بيديها، وتجري مسرعة للخارج. توقَّف سيارة أجرة وتدل السائق على العنوان الذي يجب أن تكون فيه.

تشعر أنها خفيفة لا تحمل من الهموم الكثير.. سعيدة هي، والقلب يرقص على أنغام أغنية قد شغلها سائق التاكسي في الطريق.. لأول مرة تخطو هي خطوة جريئة.. لأول مرة، تعترف بنفسها أنها قد تندم على ما فعلته، وما ستفعله، لكنها غير خائف، بل على العكس، لديها شجاعة أسد وحكمة حمامة.

توقفت السيارة أمام منزل أليكس، نزلت هي. كان النور مشعولًا في الصالة. نظرت إلى ساعتهاح كانت تشير إلى الحادية عشرة وأربعين دقيقة.. طرقت الباب، ولا تعلم، هل سيفتح لها أم لا.

تنفست بعمق.. أغمضت عينيها وهي تردد في نفسها "واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة...". وعند الستة فُتِحَ البابُ لها.. كانت تقف أمامه، وهو على وجهه علامات استفهام كثيرة.. قال: "فيكتوريا.. ما الذي تفعلينه هنا؟".

أجابت: "لقد علمت أنك عُرِّضت لحروق في ذراعك، وطلبت إجازة لشهر كامل، وهذه ليست من عاداتك".

قال: "ومنذ متى تهتمين لعاداتي مثلًا؟".

لم تجبه.. دخلت إلى المنزل بعد أن أزاحته من أمامها. نزعت حذاءها ذا الكعب العالي لأنه أرهقها طوال مدة ارتدائه.. وضعت حقيبة يدها على الطاولة، واستدارت إلى أليكس الذي كان مندهشًا من تصرفاتها، وقالت: "متى غيَّرت على الحروق".

أجاب: "منذ الصباح".

قالت: "أوه.. مدة طويلة، يجب أن تغيِّرها على الأقل كلَّ ٦ ساعات.. هل لديك علبة إسعافات أولية؟ يجب أن يكون لديك.. أليس كذلك؟".

قال لها: "يوجد في الحمام في الرف الأعلى حقيبة إسعافات".

لم يكمل جملته، تركته ذاهبة إلى الحمام لتخرج الحقيبة، وعادت بها إليه.. كان جالسًا على الأريكة.. جلست بجانبه.. طلبت منه أن يمد لها ذراعه؛ ففعل. فتحت الضمادة، وبدأت بعملها المعتاد. نظفت مكان الحرق، وضعت الكريم ثم أغلفته بشاشٍ أبيض، وكلُّ هذا وهو يراقبها. لم يشعرْ حتى بالألم لأنه كان مغمورًا بها. لم تكن أي من حواسه تعمل سوى حاسة البصر والشم غارقًا في عطرها، ودائخًا بجمالها. اِنتهت هي من تضميده، لكن هو لم ينتهِ منها. أرادت أن تنهض لتعيد الحقيبة إلى مكانها، لكنه أمسكها من يدها، تقرب منها وقبَّلها.. كان جائعًا بشدة إلى شفتيها.

لم يتركا بعضهما بعضًا إلا وكاد الأكسجين ينفد من صدرهما.. التصق رأسهما بجبينهما وقال لها: "لِمَ أنت هنا ولستِ مع حلمك؟".

أجابت: "أنت قلت "حلم".. وليس حقيقة، ولكني هنا مع حقيقتي".

قال: "ألن تندمي فيما بعد؟ ألن تتعبي مني وأنتِ تعرفين كم أنا صعب

المراس؟".

أجابت هي وقالت: "أنت كنت تعرفني كما أنا، وأحببتني، وأنا عرفتك كما أنت، ويبدو أنني وقعت بغرامك؛ لنعش حقيقتنا، والحياة ستدلنا على الطريق".

احتضنها إليه وقال: "ساحاول أن أكون الحقيقة والحلم.. الواقع والخيال".

ابتسمت هي وقالت: "أتيتك طالبة لتعلُّم الحبِّ؛ فوقعت في حبك".

أخذها إلى أحضانه وقال هامسًا لها: "كنت أعلِّمُكِ الحبَّ، وتعلمتُ منكِ كيف أحبك أكثر".

# القصة الثانية

# حبٌّ من زمنٍ آخر.

"حبك يا عابثة، أنت مَنْ أخجل القمر بجمالها، أنت لحن الخلود، أنت زهرة براري فاحت بعطرها، أنت لي كلُّ الورد، أنت مَنْ يسكن البحر في عيونها، أنت قلبٌ بالعشقِ يجود، أحبك لأنَّك أنت، ومن سواكِ في القلب يسود".

مقتبس

*****

تدندن ممسكةً جيتارها الخشبي، وهي جالسةٌ على رمال الشاطئ، لا يبعد بيتها كثيرًا عن السَّاحل، وهي تأتي كلما اِحتاجت أن تبقى وحدها، وتعمل على كتابة الأغاني وتلحينها.

كانت تعزف لحنًا سمعته من مكانٍ ما.. لم تذكر أين، وهي تحاول أن تؤلف له أغنية مناسبة.. تكتب مقطعًا ثم تدندنها، فتمحي بعضًا، وتزيد بعضًا.

وبينما هي جالسة وحدها تحتضن جيتارها، وتعزف على أوتاره، كان هناك شابٌّ يراقبها، تقرَّب منها، وقال: "اللحن رائع حقًّا ! لكن الكلمات تحتاج إلى جهدٍ أكثر". توقفت فانيسيا عن العزف وقالت: "وهل أنت خبيرٌ يا ترى؟".

ابتسم وأجاب: "نوعًا ما".. مدَّ يده ليصافحها، ويقدِّم نفسه لها قائلًا: "اسمي جووانت".

قالت: "وما شأنكَ باسمي.. لا أعتقد أنه مهم جدًّا أن تعرفه".

أجاب جو: "معكِ حقٌّ، لكن لا أزال عند رأيي.. اللحن رائع، لكن كلماتك تحتاج إلى عملٍ أكثر.. حاولي أن تكتبي لشيء تحبينه.. تحسينه، الكتابة ليست فقط فنًّا بمقدار أنها إحساس وشعور".

رفعت فانيسيا حاجبيها وقالت: "لديك وجهة نظر صائبة".

نهضت من مكانها.. حملت جيتارها وتأهبت للعودة إلى منزلها، فقال لها: "ما رأيك لو رأيتك هنا مرة أخرى غدًا".

قالت: "أهذه ثقةٌ أم غرورٌ؟".

قال: "تستطيعين أن تجمعي بينهما، لكني أستطيع مساعدتكِ لو سمحتِ".

أجابت وهي تبتعد بخطوات عنه: "لنجعل لقاءنا الثاني صدفة، وأنا اسمي فانيسيا".

ورحلت هي عنه وهو ظلَّ واقفًا هناك في نفس المكان.. لم يتحركْ قط، حتى تلاشت من أمامه، وهي تختفي بين الناس.

تعود إلى منزلها.. كان والدها يعد بعض الفطائر بطعم التوت البري. وقفت معه في المطبخ وقالت: "آه الرائحة شهيَّة كثيرًا يا أبي، لكنَّ المكانَ مبعثرٌ جدًّا".

ابتسم والدها وقال: "ساعديني حتى ننتهي منها قبل عودة أمِّك من الخارج ورؤيتها لكلِّ هذه الأواني الوسخة".

ضحكت فينيسيا وبدأ مساعدة والدها على تنظيف المطبخ وترتيبه، حتى بدا وكأن شيئًا لم يكن.

استمتعوا تلك الليلة بالفطائر اللذيذة، ثم ذهبت إلى غرفتها لتكمل عملها على الأغنية التي كانت تدندنها غفت وفي أحضانها الورقة والقلم.

تراءى لها أنها كانت تستحم في بركة جميلة جدًّا.. من حولها كلُّ الأزهار التي تعجب النظر، ومياه البركة صافية كأن لا أحد قد لمسها إلا هي وحدها بداخلها، ثم تسمع خطوات قادمة من بعيد، وهي تنده: "فينيسيا، وأخيرا وجدتك".

تفز من نومها، تأخذ هاتفها لترى كم الساعة، كان موعد استيقاظها للذهاب إلى الجامعة.. غيَّرت ملابسها بسرعة وأخذت ما كانت تحتاج إليه في ذلك اليوم.. قادت سيارتها حتى الجامعة.

التقت أصدقاءها في الباحة الأماميَّة، وكانوا يعدون من أجل حفلةٍ لجمع التبرعات من أجل مستشفى الأطفال، وطلبوا منها أنْ تعزف مع الفرقة التي خصصت للحفلة.. وافقت على الفور؛ فقد كان حلمها أن تعزف في فرقة، وأن تسمِّع موسيقاها للعالم، وكلُّ طريق يبدأ بخطوة وهذه خطوتها الأولى.. أخذها أحدُ الأصدقاء ليعرِّفها إلى رئيس الفرقة؛ كان شابًّا ثلاثينيًّا بشعر بني وبشرة ناصعة البياض جدًّا.

لم تتعرف إليه من بعيد، لكن لما تقرَّب توسعت عيناها؛ فهي تعرفة؛ لقد قابلته بالأمس عندما كانت تعزف وقاطعها. تقدَّم بابتسامة وخطوات ثابتة تكاد تسمع وقع أقدامه وقال: "اهلا جيمس.. ما الأخبار؟".

أجاب جيمس: "بخير، لقد جلبت لك العازفة التي كلمتك عنها".

ابتسم هو وتوترت هي، مد يده لها ليحيها، وكأنه لا يعرفها وقال: 'أهلا بك.. أنا جو، وأنتِ؟

قالت وكأنها لا تعرفه أيضا: "أنا فانيسيا، سررت بمعرفتك".

"وأنا أيضا، لقد شكر فيك جيمس كثيرا".

قالت: "إنه صديق جيد ويدعمني كثيرا".

قال جيمس مقاطعا:

"لست أجامل بل أعرف إمكانياتك.. أعتقد أنك ستنفعين جيدا، جو بموسيقاك، لما لا تعزفين قليلا.. هيا".

هنا، والآن؟!". أجابت:

"نعم، هنا، لدي جيتار". نده جو على أحد أفراد الفرقة ليعطيه جيتارًا وسلمه لفانيسيا. أخذته من يده، أغمضت عينيها، تنفست بعمق وبدأت تعزف نفس تلك المقطوعة التي كانت تدندنها أمس.

أعجب الكل بعزفها، وضمها جو رأسا للفرقة، لكنه حدثها على انفراد وقال لها: "أريد أن أراك الليلة، هل أستطيع ذلك؟".

سألته: "لماذا؟".

أجابها: "أريد أن أتعرف إليك أكثر، يبدو أن لقاءنا ليومين خلف بعض يجعلك تفكرين.. لم لا، أليس كذلك؟".

قالت فينيسا: "لا أدري".

أجاب هو: "سأنتظرك بنفس المكان الذي رأيتك فيه، لو أتيت سأكون سعيدا وإذا لم تأتي سأحترم حدودي.. أعدك".

أومأت برأسها، وعادت مع جيمس إلى الحرم الجامعي لتكمل يومها.

كان جو يجلس على الرمال وقد وضع تحته غطاء أزرق، وبيده جيتاره يعزف هذه المرة هو، وينتظر لقاء فانيسيا بفارغ الصبر. ليس لديه أدنى فكرة عن قدومها أو تعذرها عن القدوم، لكنه كان ينتظر ويتمنى من كل قلبه أن تأتي ويراها تقف أمامه.

وبينما هو يصلح أوتار الجيتار في يده، سمع صوتها من خلفه تقول: "على فكرة، لديك طاقة غريبة تجعل كل من يراك يشعر بأنه يجب عليه اتباعك".

ضحك جو وقال: "لا أعتقد أن هذا الوصف الصحيح، لكن أنا سعيد أنك أتيت".

جلست بجانبه وقالت: "لماذا؟".

أجاب "لماذا ماذا؟".

"لماذا تصر على رؤيتي والتحدث معي في كلتا المرتين اللتين رأيتك فيهما".

"إذا أخبرتك لن تصدقين، لقد جلبت لك العازفة التي كلمتك عنها".

قالت: "جربني إذن".

"حسنًا.. هل تصدقين الحب من النظرة الأولى أو الإعجاب ربما أو تخاطر الأرواح؟".

قالت ضاحكة: "غير مصدقة.. لن تقول إنك تحبني، هذه خدعة قديمة للإيقاع بالفتيات".

"أرأيت؟! قلت إنك لن تصدقيني".

"هههه، لأنها مضحكة جدًّا ومستهلكة، لو كنت اخترعت شيئًا جديدا مبتكرا ربما كنت صدقتك".

"لا يهم الآن إذا صدقتني أو لا، لكنك ستقعين بحبي قريبًا.. أؤكد لك هذا".

"لا، أنت مغرور أيضا".

قال: "وهذه ميزة أيضا في".

ابتسمت فانيسيا وقالت: "لندع المزح جانبا، ونتحدث بالعمل.. ما رأيك؟".

هز جو رأسه وقال: "جيد، لنتحدث إذن".

تناقشا قليلا ببعض الأغنيات.. عزف هو على جيتاره، ثم أخذت هي وتدربت على إحدى الأغاني، ولما تعبا استلقى جو على الغطاء الأزرق أمام أنظارها، وقال: "الليلة صافية جدًّا، انظري إلى النجوم كم جميلة هي!".

تشجعت هي الأخرى وألقت بجسدها على الأرض، وكانت تطالع النجوم معه، قالت بنفس هادئ مطمئن:

أتعلم، كانت جدتي تعرف تقريبا كل أسماء النجمات، وكنت دائما أبات عندها حتى تحكي لي حكايات جميلة عنها. دائما كان هناك في كل أسطورة قصة للنجوم فيها، ومنذ ذلك الوقت وأنا أعشق الليل ونجومه، لكن منذ توفت لم أنظر إلى النجوم هكذا، ولم أتحدث عنها منذ زمن ليس بطويل".

كانت هي تتحدث، وكان هو يطالع في وجهها ويتخيلها هي إحدى النجمات التي سقطت على الأرض، فقال: "ليس كل النجوم في السماء، بل هناك نجوم على الأرض أكثر لمعانا".

أدارت رأسها إليه، وهو ما زال يطالعها.. ابتسمت له ابتسامة طمأنينة ثم نهضت وقالت: "حان وقت عودتي".

أجابها هو: "لا تتأخري غدا، سيكون أول أيام التدريب.. لم يتبقَ على الحفل سوى أسبوعين".

أومأت برأسها موافقة، وعادت إلى المنزل وهي تبتسم لنفسها طوال الطريق.

*****

بمرور الأيام، أصبح تقاربهما أكثر وأكثر، كانت تتحمس لأوقات التدريب وهو لا يرى شيئا سواها.

ساعدها على إكمال الأغنية التي كانت تدندنها على ذلك اللحن الذي لا تعرف حتى كيف طرأ على ذهنها ومن أين سمعته قبلا.

كانت تشعر أنها تمتلك كل حبال المعرفة وهي بقربه.. كان يدهش كل إنسان حوله كأنه يعرف كل شيء عن أي شيء، وهذا الإعجاب ملء قلبها، حتى طاف به واندلق فاصبح عشقا غير معقول.

في أحد الأيام بعد أن تفرقت الفرقة من بعد التدريب، أخذها جو بسيارته الفولفو القديمة السوداء إلى مكان ساحر جدا.

كان الجو باردًا نوعا ما. ركن سيارته.. أخذ مصباحًا يعمل بالبطاريات، وأكملا الطريق مشيا عبر بعض الأشجار المتشابكة ليقفوا. بركة تحدها الصخور والأشجار من كل جانب، وضوء القمر والنجوم يعكس على سطحها الصافي كأنها لآلئ تطفو على وجه المياه أو شعلات نار بيضاء براقة تضيء عتمة المكان.

نظرت من حولها، وقالت: "هذا منظر رائع، كيف تعرف هذا المكان؟".

"ليس أنت فقط من يبهرني بقصصك أنا أيضا لدي قصص ستبهرك".

أجابت هي وقالت: "إنه حقا مكان رائع، إذا كان هكذا في الليل فكيف يكون في النهار؟!".

أجابها وهو ينزع ملابسه: "ما رأيك لو تجربينه الآن معي".

"هل أنت مجنون؟! إن الجو بارد؛ قد نمرض".

ضحك وهو ينزع بنطاله وقال: "هل تخافين من البرد، أم تخافين أن أكون أشجع منك مثلا".

استفزها بقوله ولم ترد عليه إلا بنزعها هي الأخرى، والسقوط قبله بالمياه.. كانت باردة جدا بدأت بالارتجاف لثوانٍ حتى تعوَّد جسدها حرارة المياه وغطسا قليلا.. بعدها عادا إلى اليابسة.. أخذها جو إلى أحضانه ليدفئها بجسده.. كانت أنفاسه تدفئ يديها.. تطالعه بحنو وهي تراه كيف يحاول أن يبقيها دافئة.

وبينما هي تنظر إليه هكذا تقربت إليه هي.. قبلته ثم ابتعدت عنه، لكنه عاد وسحبها إليه، وعاد يقبلها فكانت هذه المرة الأولى التي يلمسها بها رجل، وقد أعطته الحق بأن يكون هو أول من يرعش جسدها ويدفئه في آن واحد.

أخذها وعاد بها بعد أن مارسا طقوس الحب واحترقا بناره الذي كواهما منذ الأزمان.

عادت إلى المنزل.. كان الوقت متأخرا قليلا.. ووالداها كانا قلقين عليها.. كاد أن يتشاجر الأب وابنته إلا أن الأم وقفت بينهما، وأخذت ابنتها لتفهم منها أين كانت.

قالت الأم: "هل تعلمين كم كنا مرعوبين عليك! لم تفعيلها من قبل قط.. أين كنت؟ وهل هذا هو رئيس الفرقة؟

أجابت فينيسيا وقالت: "نعم يا أمي، ولاني لم أفعلها من قبل لأني أغرمت يا أمي.. أغرمت.. لقد وقعت بالحب وهو يبادلني الحب أيضا".

تنفست الأم بعمق وقالت:

"لا أدري ماذا أقول، لكن على الأقل كنت أخبرتنا قبل أن تتأخري".

"أعدك يا أمي أني سأخبرك مرة أخرى، والآن يجب أن تهدئي من غضب أبي".

قبلتها الأم من جبينها وأغلقت باب الغرفة عليها وخرجت، أما فانيسيا فقد ألقت بنفسها على السرير تتذكر للتو ما عاشته مع جو.

استيقظت ذلك الصباح على أصوات حديث وضحكات قادمة من صالة الجلوس، ولما نزلت من غرفتها وجدت جو يجلس مع والديها ويتحدثان..

قاطعتهم وقالت متسائلة: "جو ما الذي تفعله هنا؟".

أجابت الأم: "لقد أتى ليعتذر، ويعرِّف بنفسه، إنه لطيف حقا".

ابتسم جو لها ورفع يده ليحيها، ابتسمت هي أيضا، وجلست بجانبه وهي تشاهده كيف يتحدث مع والديها؛ فله سحر خاص يجعل كل من حوله يقع في حبه..

هناك هالة خفية حوله لا تعرف من أين مصدرها، لكنها بالتأكيد لا تعرف أي شيء عنه، وهو لم يحدثها قط عن نفسه، لم يخبرها مثلا عن أمه أو أبيه، لا تعرف إذا كان لديه إخوة أو أخوات.. لا تعلم حتى إن كان يعيش هنا أو في منطقة أخرى.

وبعد أن انتهى وقت الزيارة، خرجت معه إلى الخارج وقالت: "لقد انتبهت لشيء ما".

أجاب: "ماذا يا حبيبتي؟".

قالت: "لا أعرف أي شيء عنك، وغدا يوم الحفلة، إذا أردت أن اعزف معكم، يجب أن تخبرني بكل شيء يخصك".

قال لها مبتسما: "كنت أنتظر أن تسالينى وأني أخاف أن أجيبك لأني لا أعرف رد فعلك، لكني أعدك أن أخبرك بعد الحفل لو سمحت".

"لكني أريد أن أعرف شيئا يجعلني آتي للعزف". قالت مؤكدة.

أجاب هو "إذا أخبرتك أشياء لا يعرفها كثيرون، لكني أعرفها منذ وقت طويل.. هل ستصدقين؟".

قالت باندهاش: "حسنًا".

أجابها: "تكرهين رائحة السمك كثيرا، لا تحبين البيض المسلوق، تخافين من الصواعق والبرق".

اتسعت عيناها وهي تستمع إلى ما يقوله؛ لا أحد يعرف عنها هذه الأشياء سوى والديها.. قالت:

"لا بد أنك عرفت هذا من والدي".

أجاب: "لا.. لكن لأخبرك شيئا لا يعرفه أحد سواك، إنك تحلمين ببركة صافية محاطة بزهور غريبة تسمعين فيها وقع أقدام وصوت يندە باسمك".

تراجعت فينيسيا هذه المرة إلى الخلف خطوة وقالت: "وكيف تعرف هذا عني؟".

أجابها: "سأخبرك بعد الحفل بكل شيء، أعدك، على فكرة الرجل في حلمك أنا".

قبلها من خدها، ثم قال قبل أن يركب سيارته:

"أراك مساءً للتدريب الأخير قبل الغد.. كوني مستعدة".

ظلت جامدة لا تتحرك وهي مندهشة، بل تدهش كل يوم أكثر بسببه.

يقال إن الحب خلق مع الإنسان، وإن آلهة الحب أنعمت به عليه وأعطته فرصة واحدة ليجد توأم روحه فرصة واحدة قد يصادفها في حياته أو لا، وكل التجارب التي يعيشها الإنسان ليست حبا حقيقيا إلا إذا وجدت توأم روحك المختار لك منذ الأزل.

كان الحفل مكتظا بالجماهير التي قدمت لتستمتع بوقتها ولتساعد في جمع التبرعات التي يحتاجون إليها، وبدأ العزف.. كانت الأغنيات تلمس كل من يسمعها؛ تارة يشعر بالحب وتارة تدمع العيون، اشتياق للحبيب، وتارة أخرى يسكب ما في القلب من ألم لينتهي منه إلى الأبد.

ولما انتهى جو من غنائه للأغنية الرابعة، توقفت الفرقة عن العزف. استدار خلفه كانت فينيسيا واقفة وبيدها جيتارها، ثم عاد واستدار إلى الجمهور وقال: "إذا سمحتم سأقدم لكم صوتا وأغنية ستأخذكم إلى عالم الأحلام.. إلى عالم تستطيعون فيه أن تقابلوا حب حياتكم.. كل ما عليكم أن تغمضو أعينكم وتستمعوا بقلوبكم.. ستشعرون أنكم سافرتم عبر الأزمان. ستشعرون بذلك بكل تأكيد.. صفق الجمهور بحماسة، ثم قال جو وهو يعطي مكانه لفينيسيا: "هيا يا جميلتي أبهريهم".

لم تصدق ما الذي فعله جو لتوه.. تقدمت ببطء متوترة بخطوات فيها من الخوف والرهبة.. تعزف وتغني لأول مرة على مسرح لمئات الوجوه التي تطالعها، ومئات الآذان التي تسمعها.

وقفت مكان ما كان يقف جو.. مررت أصابعها على أوتار الجيتار.. أغمضت عينيها لتأخذها الموسيقا إلى حيث تشاء وبدأت تعزف تحت صمت المشاهدين.

لثلاث دقائق أخذتهم فينيسيا من الواقع إلى عالم الأحلام.. اختاروا أن يغمضوا عينيهم معها، وكل واحد كان يطارد حلمًا لم يستطع الإمساك به.. كل واحد منهم شعر بسيل من المشاعر تدفق إلى قلبه ووجدانه، حتى جو كانت عيناه تدمعان حبا لها وانبهارا بما استطاعت فعله من فوق هذا المسرح وما استطاعت فعله به كل هذا الوقت وعلى مر الأزمان.

كانت فينيسيا تعزف.. وفي آخر مقطع لها شعرت بوخز في مؤخرة رأسها.. ارتجف صوتها لكن لم يشعر أحد سوى جو.. استطاعت ان تتمالك نفسها وتكمل حتى النهاية، ولما انتهت انحنت أمام الجميع تشكرهم، وغادرت المسرح وهي خائفة أن تقع أمام الجمع الغفير فتسبب بحالة هلع، حتى إنها شعرت ببعض التشوش في عينيها. شعر جو بأن أمرًا ما أصابها.. أمسكها من ذراعها لما تقربت منه، وقال: "هل أنت بخير؟ هل تشعرين أنك بخير؟".

أجابت وهي تمسك برأسها بين يديها: "لا أدري.. لا أستطيع التركيز ولا الرؤية بوضوح وكأني سيغشى عليَّ".

اتكات عليه وأخذها إلى الكرفان الذي كان يستخدمه من أجل التنقل فيه،

لكن لم تحملها ساقاها، ولم تستطع الصمود أكثر.. وقعت بين يديه.. فوقع قلبه معها.. حملها بين ذراعيه وهو يردد: "لا، لا.. أرجوك ليس الآن.. لم تعش أي شيء بعد.. لا تأخذوها مني.. ما زال الوقت مبكرا جدا".

وضعها في المقاعد الخلفية لسيارته، وانطلق بها إلى المشفى، وهي بين الصحوة واللا صحوة.. تستمع لما يقوله وكأنها في حلم يقظة.

يرتعش كل جسده خوفا عليها.. لم يكن بها شيء قبل دقائق فقط، ما الذي سيكون سبب هذه النكسة الفجائية، لقد عثر عليها منذ وقت قصير فقط.. ما هذه اللعنة التي يعيشها!

بعد ساعات فقط، كان الأب والأم وجو يقفون بذهول.. لا يصدقون ما يقوله الطبيب المختص بعد أن طلب عمل تحاليل وأشعة لفانيسيا.. حينما أوصلها جو بتلك الحالة.. ساعات فقط غيرت حياة من حولها، تشخيص قلب موازين الحياة وأولهم حياة فانيسيا.

لم تتمالك الأم نفسها؛ وقعت على الكرسي من هول الأخبار التي سمعتها، وزوجها يحاول أن يخفف عنها ويبقيها متماسكة. أما جو د، فظل واقفا أمام غرفة فانيسيا يتابع نومها الجميل وكأن لا شيء حدث.

لم يقاوم وجودها هناك.. كان غاضبا من نفسه.. يؤنب نفسه دائما على كل أمر يحل بها، على كل مرة يظهر في حياتها فتبدأ المعاناة، إنه ملعون ولعنته شملت حبه لها وشملتها معه، في كل انبعاث جديد يحاول أن يبقى بعيدًا عنها، لكن الأقدار تجمعهم وهو لا يتحمل بعدها.. وقربها أيضا معضلة فيخسرها دائما بطريقة أو بأخرى، لكن هذا قدره وهذه لعنته.

خرج من المشفى يقود سيارته بلا وجهة معروفة.. يبتعد قدر الإمكان عنها، وعن كل شيء يربطه فيها.. يذهب بعيدا في ذلك الليل الذي أطبق على أنفاسه وكأنه تحت آلة الضغط الهيدروليكي تحطم أي شيء.. تحتها كان يشعر بقلبه يتحطم هكذا.

هام على وجهه طوال الليل، لا يشعر حتى بأطرافه المتجمدة أو أنه لم يعد يهتم حتى، لقد ملل من هذا الانبعاث القاسي الذي يعيشه كل يوم وبالأخص حين لا تكون محبوبته بجانبه، وكم هي طويلة تلك السنوات التي يعيشها وحيدا.

غفا وهو مثقل بأحزان إذا وضعت على ظهر جمل لكسرته.

*****

متعبة من نوم طال، مستلقية على ذلك السرير الأبيض بفراشه الأبيض، حتى إذا لم تكن مريضا أمرضك. قد حقنت ببعض المحاليل، وعيناها ما زالتا مثقلتين. لما فتحت فمها وطلبت القليل من الماء لأنها عطشة.. أسرعت امها واعطتها لتروي عطشها، وساعدتها على الاتكاء.. تنفست بعمق وثقل وقالت:

"ما الذي حدث يا أمي؟ وأين أبي؟".

أجابت الأم بصوت يرتعش، لكنها تظهر نفسها على أنها قوية وقالت:

"لقد أغمي عليك، جلبك جو ليلة البارحة ووالدك ذهب للمنزل ليجلب بعض الأغراض التي بحاجة إليها".

'كيف حدث لي ذلك؟ أنا لم أعانِ من شيء.. وأين جو؟ لا أراه". قالت باضطراب.

أجابتها أمها؛ "لقد خرج أمس ولم يعد بعد، كان يبدو عليه الحزن جدا، إنه

يحبك كثيرا، وأنا أرى هذا في عينيه".

عادت فانيسيا وكررت نفس السوال: "ما الذي حدث لي؟ ولمَ أنا هنا؟".

أزاحت الأم وجهها، كيف لها أن تخبرها أنها شخصت بمرض السرطان، وفي مرحلته الثالثة، وأعجوبة فقط من السماء تنتشلها من موت محقق، لكنها لا تستطيع أن تقول هذا لها.. كيف ستخسر ابنتها الوحيدة وبسرعة هكذا؟

أجابت وهي تحبس الدموع في عينيها: "سأخبرك حالما يصل والدك. اما الآن فارتاحي فقط".

حاولت النهوض وقالت: "لا بد أنه أمر خطير، هل أنا مصابة بمرض مميت؟ ولهذا لا تخبريني".

انتابتها نوبة من الهلع والغضب.. ندهت الأم للمساعدة، وبينما أتت بعض الممرضات ليهدئنها.. كان جو قد وصل لتوه إلى غرفتها التي تبقى فيها، ولما رأته هدأت لدقيقة، وكأنها تستنجد بعينيها له ليفهمها ما الذي يحدث.

لما هدأت تركوها بعد أن أعطوها مهدئًا.. أيضا جلس جو بجانبها ممسكا بيدها يقبلها تارة ويمسح دموعها تارة.. فقالت له: "أخبرني أنت، ماذا بي؟ أمي لا تستطيع إخباري.. يبدو أنني سأموت.. أليس كذلك؟".

قال: "لن أسمح بموتك.. ليس هذه المرة.. ما زال الوقت مبكرا".

"ما الذي تعنيه؟ لا أفهم.. ماذا بي؟ وكيف لن تسمح بموتي؟".

تنفس نفسا عميقا، وقال: "بعد أن أغمي عليك ليلة الأمس جلبتك إلى هنا، وبينما يتفحصك الطبيب دخلت في نوبة ارتعاش غريبة، اضطر الأطباء إلى القيام بعدة فحوصات وأشعة لك.. تبين أن معك سرطانًا بالدماغ بحجم حبة جوز

كبيرة في منطقة خطره جدا، حتى إذا قامو بعملية جراحية لن يستطيعوا أن يقتطعوه كله.. كما يجب أن يعالجوا ما.تبقى بالعلاج الكيمياوي.. وهذا لن يطيل بعمرك سوى سنة بالكثير".

يرتجف صوته وهو يحدثها، وتتوسع عيناها وتنغمر مآقيها بالدموع وهي تشد على كفيه مثل طفلة تتشبث حتى لا تقع.

حنى رأسه وأخذ يبكي ويبكي وهي تمسح على شعره كأنها أمه، وتواسيه وهي من تحتاج للمواساة.

رفع رأسه ونظر إليها قائلا: "لا أريد أن أخسرك يا فينيسيا.. ما زلت شابة وأنا لست مستعدا أن أبقى على ذكراك لسنوات أُخر".

بلعت ريقها وهي تستمع إليه، وما يقوله.. لاوتفهمه.. قالت:

"أنت تتحدث بالغاز.. ماذا هناك؟ لا أفهم".

طالع في عيونها وقال: "ساخبرك لكن يجب عليك أن تصدقيني؛ فأنا لست مجنونا أو كاذبا.. قد يكون رد فعلك في كل مرة أخبرك فيها يتغير، لكن لم يحدث أن أخبرتك وأنت مريضة".

توسعت عيناها وقالت: "كيف يعني؟ هل نعرف بعضنا من قبل؟ هل تقابلنا من قبل؟".

قال: "نعم، نحن نعرف بعضنا منذ ٦٠٠ سنة.. نعم، ٦٠٠ سنة مضت حين وقعت بحبك لأول مرة، ولعنت بعدها، وأنا أجدك كل ١٠٠ سنة حين تبعث روحك من جديد.

تركت فينيسيا يديها من بين يدي جو.. أصاب جسدها قشعريرة غريبة..

ارتجفت كل أعضائها، ولما رآها جو هكذا نهض من جانبها، وابتعد.. خاف أن تنعته بالكذب أو تطرده حتى من أمامها.. وقف بجانب النافذة وهو ينظر إلى الخارج وقال: "أعلم أنك قد لا تصدقيني، لكني لا أريد سوى أن أكون بقربك.. سأخبرك بكل شيء لو سمحت أو أختفي الآن من أمامك إلى الأبد.. الاختيار لك".

سكتت لثوان وهي تفكر "هل يا ترى يستحق أن تسمع له أم أنه فعلا مجنون، لكنه لا يعد طبيعيا أيضا". كانت دائما تشعر بشعور غريب وهو من حولها حتى إنها لا تعرف أي شيء عنه، ولم يحدثها كما وعد. قالت: "كنت قد وعدتني أنك تحدثني عنك.. لديك فرصة واحدة لتثبت أنك لا تكذب، وسأعطيك فرصة واحدة لتشرح كل شيء، وإذا لم أقتنع لا أريد رؤيتك بعد اليوم".

طأطأ برأسه موافقًا وقال: "كنت قبل ٦٠٠ سنة أجمل فتاة رأيتها في حياتي، ولدت لأم وأب فلاحين، وحين كبرت قليلا بالضبط حين أصبح عمرك ١٦ عاما، دخلت إلى الدير حتى تنذري نفسك لله، ولكني وقعت في حبك آنذاك وأنا أرى فيك تلك الخاشعة.. حتى إني حسدت الخالق على حبك له، وبسبب طيشي طلبت من رئيسي أن يحولني إلى إنسان حتى تفوز بقلبك...".

قاطعته هي قائلة: "كيف يعني أن يحولك لإنسان؟! ماذا كنت قبل ذلك؟".

"كنت ملاكك الحارس، عينت لأكون حارسا لخطواتك، لكن بدلًا من أن أحرسك وقعت في حبك، وكانت هذه خطيئتي، ومما زاد الطين بلة أني اخترت أن أصبح إنسانا لأني اخترتك أنت، وطلبت من رئيس فرقتنا الملائكية هذا".

"وماذا حدث بعدها؟". أجابت هي.

أكمل جو قائلا: "أدخلني الرئيس في اختبار، وهو أنني لو استطعت أن أجعلك تقعين في حبي خلال ثلاثة أيام، سيغير من كينونتي ويحولني إلى إنسان، وكان هذا الشرط الأول، وقبلت دون تفكير؛ رغبة مني أن أصبح عشيقا لك، وتصبحي أنت حبيبتي.. كنت مستعدا أن أموت بعدها.. فقط أن أموت بين ذراعيك لو احتاج الأمر.

وحدث ما حدث وظهرت أمامك في اليوم الأول وكان أجمل يوم عشته في حياتي كلها فبعد سنين من حراستك ومراقبتك، وأنت لا تعلمين شيئا رأيتني وأحسست بي كإنسان مثلك، وبعد ثلاثة أيام، استطعت أن أوقعك في حبي، كما كان مقررًا وربحت الجولة الأولى، لكن لم أعلم أن الجزء الثاني من الاتفاق كان هو الأصعب؛ فقد حكم علي بالخلود لا الموت مثل الإنسان وأن أعاني فقدك في كل مرة أحصل عليك فيها، وكل مرة تقعين في حبي، يكون قد مضى على فراقنا ١٠٠ عام وأنا أنتظر كل ١٠٠ عام أجول في الأرض كلها بحثا عنك...".

قاطعته فينيسيا وقالت: "وهل أحببتك ٦ مرات كما تقول؟ وكيف كنت تعثر عليَّ أو عليها أو على روحي؟".

ضحك جو وقال: "اللحن.. اللحن الذي كنت تعزفينه هو الخريطة التي تدلني عليك.. روحك كانت عازفة وكل مرة تبعثين من جديد تكونين عازفة، وبسببه أجدك؛ فالرابط بيني وبين اللحن وهو رابط روحي، أشعر به في أحلامي فيدلني على مكان وجودك. أما كيف كنت أراك، فهذه قصة أخرى؛ وجدتك في مدن ودول مخالفة؛ كنت مرة ابنة ارستقراطية، ومرة كنت كاتبة معروفة، ومرة

كنت ممرضة في الحرب العالمية الأولى، وأخرى كنت مهاجرة، والآن هنا".

وعاد للبكاء يجهش كأن قطعة من روحه تقتطع منه.. لم تتحدث بل كانت ساكنة في قرارتها، تصدق ما يقول، لكن لو سمع أي شخص هذا الكلام لنعته بالجنون فعلا؛ يبدو فعلا شيئا خياليًّا.. لا يحدث إلا بالأساطير أو الأفلام.. تقرب منها بخوف أن ترده وقال: "هل تصدقيني يا حبيبتي؟ هل تصدقين هذا الملاك المعذب بحبك؟ هذا الذي رفض كل النعم ليكون معك، وكان عقابه ثقيلا جدا".

أجابت هي "إني أصدقك، لكن لن يصدقك أحد غيري".

"ما الذي ستفعلينه إذن.. لا تختاري الفراق.. أرجوك يكفي أني أفترق عنك كل ١٠٠ عام وأتعذب حتى ألتقيك مرة أخرى.. كانت تكفيني أيام لأحبك فيها وأني أتحمل كل السنين لأني أعلم بوجودك المؤكد القادم".

أجابته وقالت: "لن نخبر أحدًا.. وإن كنت ستخسرني فالنعش ما تبقى لنا.. أشعر أني متصلة بك.. أجل، أشعر بهذا حتى لو أن كل ما حكيته للتو جنون مطلق، لكني أصدقك".

تقرب منها واحتضنها، بل قبل شفتيها التي لا يشبع منهما.. وضع جبينه على حبينها وهو يتنفس بسرعة قائلا: "ساظل معك حتى تنتصري على مرضك.. ونعيش أطول فترة ممكنة مع بعض".

أومأت برأسها موافقة فلا يوجد حل إلا أن تقاوم من أجل حبها.. لم تصب اللعنة جو الملاك العاشق فقط بل أصابتها أيضا. لأنها فضلت حب الإنسان على حب الخالق.. وكان هذا عقابها؛ فهي تموت ولا تعيش كثيرا بقربه، وهو ينتظر

انبعاثها كل ١٠٠ عام، ولا يموت بل يعاني ببطء شديد غيابها، لأنهما تحديا قدرهما وما كان مكتوب لهما منذ البداية.

خضعت فينيسيا للجراحة ثم العلاج الكيمياوي.. أشهر كانت تعيشها في ألم متواصل بين الإعياء والغثيان وتساقط الشعر والنوم القليل.. وكان جو بجانبها، حتى إنه عرض الزواج عليها.. ووافقت بكل فرح رغم الألم.

كان جو يقص عليها كل يوم الحكايات التي عاشها والتي عاشاها معًا.. يخفف عنها آلامها، ويتذكر ما كان بينهما، وكأنه يخبرها بحكاوي ألف ليلة وليلة، وهي تصغي له وكأنها تريد أن تتذكر ما يتذكره وحده فقط.

وجاء موعد الاختبار الرابع من أجل أن يتاكدوا أن المرض اختفى أو ما زال، وكانت المفاجأة أن السرطان قد اختفى وأن دماءها نقية والورم الذي في رأسها اختفى.

كانت السعادة التي غمرتهم بعد تلقي هذه الأخبار لم تسعها صدورهم وقرروا الزواج على عجلة.

وبعد شهر فقط، تزوجا بحفل زفاف على البحر حيث التقيا أول مرة.

قبلها أمام جميع المدعوين حين أعلنهما القاضي زوج وزوجة للمرة السادسة بعد ٦٠٠ عام من أول لقاء بين ملاك هائم عاشق وبين إنسانة متيمة به.

أخذها إلى جزيرة سياحية ليقضيا بعض الوقت أو ما يسمى شهر العسل، فعاشا أيامًا لا تنسى، بل كل الأيام التي قد عاشاها مخلدة في ذاكرة جو.

لكن كانت الساعة الأكثر إيلاما حين بدأت تشعر فانيسيا بعد شهرين بصداع قوي في رأسها وآلام في بطنها، ولم تتحمل الألم، فاخذها جو للمشفى

ليكتشف بعد التحاليل أن السرطان قد عاد، وهذه المرة انتشر في أجزاء من جسدها، لكن كان لوقع الخبر أثره الشديد على جو أكثر من فنيسيا، وقد آمنت بقدرها وموتها المحتوم عليها.

لم يفارقها جو بالأيام التي تلت.. كان يسهر طوال الليل على راحتها، حتى طلبت فنيسيا منه ذات ليلى أن يستلقي بجانبها، وفعل ما طلبت، فأخذها إلى صدره تحتضنه هي بشدة لا تود تركه.

فحينها فقط أسلمت روحها لبارئها بين أحضانه، كما تمنت دائما تاركة إياه وحيدا مرة أخرى، يدفنها تحت التراب ويهيم على وجه الأرض، ليبحث عنها مرة أخرى.. ينتظر بشوق عاشقًا، فارق الحب أحضانه، ويحتضن القبر في كل مرة الإنسانة التي عشق ولا يزال يعشق إلى الأبد.

# القصة الثالثة

# عيد ميلادك الثلاثين

"وإني أُحبك مثقال كونٍ بما حوى ثم اني أُحبك عمرًا وما نهاية العمر إلا الفنى".

مقتبس

*****

يقال إن الحب لا ينتهي إذا بقيت القلوب فيه، وإن البعد عن العين يزيد من الشوق لا عكسه، وإن الزمن لا ينسي، بل يجعلك تستصعب حبا آخر مثل الحب الذي كان بين يديك وضيعته.

تغلق كتابها الذي كانت هائمة فيها منذ ساعات حتى أنهت قراءته كله.. تضعه على الرف مع أصدقائه الآخرين.. تعود إلى الوراء خطوتين.. تنظر ببهجة نحو الجدار الذي امتلأ بكتب بعناوين ومؤلفين مختلفين، ثم تنظر إلى ساعتها التي في معصمها.. تتنفس بعمق وتقول محدثة نفسها: "لدي ساعة واحدة لأحضر نفسي.. أجل، ساعة واحدة تفصل بينها وبين اللقاء الذي نظمته إحدى زميلاتها من أيام الجامعة؛ فبعد ثماني سنين تتجمع لأول مرة مع دفعتها التي تخرجت معها في تلك السنة ٢٠١٢. تصعد إلى غرفتها.. ترتدي أجمل ما عندها.. تسرح شعرها.. تحمر خديها.. ترسم شفاهها.. وتضع المسكرة على رموشها لتظهر جمال عينيها.. تنتعل حذاءها.. ترش بعض العطر؛ فيفوح في الأجواء عطر الياسمين.. تنزل وهي تطارد الثواني.. الآن تركب سيارتها وتنطلق نحو المكان المقرر.

**قبل شهرين...**

جالسة هي في غرفة مكتبها خلف حاسوبها الشخصي.. ليلى المنصوري.. مدير عام في شركة للإعلانات.. تراجع بعض المشاريع التي تم الاتفاق للعمل عليها. من خلف نظاراتها الطبية، تنظر إلى سمير مساعدها الشخصي، وهي تتناقش معه حول أحد المشاريع فيقاطعها صوت قادم من هاتفها ينبهها بوصول إشعار لإيميل جديد.

تطلب الإذن من سمير وتنقر على شاشة لتظهر الرسالة التي وصلتها، جاء فيها:

"مرحبا..

بعد التحية والسلام،

نحن دفعة كلية الإدارة والأعمال لسنة ٢٠١٢ ندعوكم لحضور الحفل السنوي الأول للتجمع بعد انقضاء سنين، ونتمنى من كل قلبنا أن تكونوا موجودين لنسعد بجمعتنا من جديد، ونتذكر أحداث الماضي وأوقات دراستنا؛ لنعود إلى تلك الأيام التي انقضت، ونعود لنعرف أخبار بعضنا بعضًا، ونصبح على تواصل أكثر من ذي قبل..

المعلومات التي تحتاجونها حال موافقتكم للانظمام ستجدونها في أسفل الرسالة. نسعد بحضوركم ونتمنى حضوركم.

المرسل: رئيس اتحاد طلبة جامعه الشرق لعام ٢٠١٢

زاهد يسري".

تلمع عيناها غير مصدقة بما وصل لها؛ لقد انقضت ثماني سنين وهي مبتعدو كل البعد عن الجميع بعد أن تخرجت وسافرت من أجل الدراسات العليا في إيطاليا لتعود بعدها وتنخرط في العمل ويأخذها الوقت والحياة لتنسى كل ما مرت به، لكن بهذه الرسالة عادت لسنين إلى الخلف انعقد لسانها وتجمدت أطرافها حين تذكرت للتو أجمل أيام عمرها التي قضتها في تلك السنوات.

قاطعها سمير وهو يناديها لينتشلها من الأخدود التي وقعت فيه حين قال لها: "ليلى.. ليلى.. لقد سرحت.. ما الذي شد انتباهك وأخذك من الأرض؟ ليلى هل تسمعينني؟".

لم تجبه.. نهض، تقرب منها، هزها من كتفها ليعيدها إلى الواقع كأنها كانت قد دخلت في أحلام اليقظة.

رفعت نظاراتها من عينيها وقالت: "اعذرني يا سمير.. لن تصدق ما الذي حصل للتو".

أجاب بفضول: "أخفتني يا ليلى.. أناديك منذ دقائق ولا تجيبين.. ما الذي يحدث معك؟".

قالت له: "لقد وصلتني رسالة يطلب مني أن أذهب من أجل اجتماع رتبته جامعتي للالتقاء مع أصدقاء دفعتي".

ابتسم سمير وقال: "هذا شيء رائع.. رائع جدا اذهبي.. لم لا؟".

نظرت إليه، وهي ما زالت غير مصدقة، وقالت:

"لكن لا أستطيع؛ لدي الكثير من الأعمال ولن ألحق حتى ذلك الموعد.

أجابها سمير وقال: "ومتى الموعد؟ لن يكون غدًا.. أليس كذلك؟".

قالت: "بعد شهرين".

"بعد شهرين يا ليلى، هناك الكثير من الأشياء ستحصل وتنتهي. أعتقد أنك يجب أن ترتبي أمرك وأن تأخذي استراحة لنفسك وبالأخص من أجل هذا الموعد.. اذهبي واستمتعي والتقي أصدقاءك القديمين.. ألم يكن لديك أصدقاء مقربين في الجامعة".

أغمضت عينيها.. وتذكرته، كان لديها.. وكيف لم يكن؟! كان من أجمل وأرق وأحن الاشخاص الذين قابلتهم في حياتها. عاشت سنين الجامعة معه مثل حلم لم تتمنَ قط الاستيقاظ منه يوما، لكن السنين والبلاد أبعدت بينهما حتى افترقا بلا أي تواصل البتة.

قاطع شرودها مرة أخرى وقال: "هل سرحت مرة أخرى، يبدو أن الأمر ليس خاليًا أبدا، وأنت لا تحدثيني أبدا عن تلك الفترة، لأني تقريبا أعرف كل شيء عنك، وقد حدثتني بكل شيء.. نحن صديقان منذ خمس سنوات، ونعرف عن بعضنا بعضا الكثير، أنا أكثر شخص يعرفك يا ليلى، ويبدو أن قصة قديمة تربطك بتلك الفترة، وإذا ذهبت إلى الاجتماع ستفتح مواضيعها.. أليس كذلك؟".

ابتسمت ليلى وقالت: "يبدو أنك بالفعل أكثر شخص تعرفني.. سأفكر بالأمر. والآن يجب أن نعود إلى العمل؛ لدينا الكثير لو كنت تريد أن أذهب للقاء يجب أن ننهي الكثير من الأعمال.

ابتسم سمير وعادا للعمل. أما هي فعادت بسنين عمرها للوراء.

*****

ترجلت من سيارتها التي ركنتها بالقرب من المكان المحدد من أجل اللقاء.. كان عبارة عن قاعة احتفالات كبيرة، هي جزء من فندق ضخم يقع في وسط المدينة التي تعيش فيها ليلى.. تحمل حقيبتها ذات الماركة الغالية الثمن مع فستانها الأسود الطويل المصنوع من الحرير.. ترفع شعرها بخصل هاربة من هنا وهنا، كما كانت ما زالت تجذب الأنظار إليها.

دخلت إلى القاعة وبدأ قلبها يدق كأنها تجري منذ ساعات.

رأتها إحدى زميلاتها فصرخت غير مصدقة.. نادت بكل صوتها حتى سمعها الجميع: "ليلى.. أهذه أنت.. يا ألله! انظرو من أتى يا أصحاب، إنها ليلى المنصوري بشحمها ولحمها".

ابتسمت لزميلتها التي لم ترها منذ سنين، وقالت وهي ترحب بها وتحتضنها: "اااه يا سما كيف حالك".

ابتسمت سما وقالت: "أنا بخير، وحالي جيد مقارنة بأنني أم لطفلين".

انصدمت ليلى كيف انقضت السنوات بسرعة، والآن سما متزوجة ومعها طفلان، كان من الممكن أن تكون هي مثل سما.

طردت الفكرة من رأسها وبدأت تحيي زملاءها السابقين، ومن بين كل تلك الجمعة، لكن الأنظار كلها استدارت حين رحبت مشرفة الحفل بمدير الفندق قائلة: "والآن أقدم لكم أحد أكثر زملائنا شهرة منذ أيام الجامعة والمدير التنفيذي للفندق السيد والصديق/ سليم السلطان".

لم تصدق أذناها ما تسمع أو عيناها ما ترى؛ سليم بنفسه أمامها.. انتظرت لشهرين كاملين بأعصاب مثل الثلج وهي تفكر باللحظة التي ستلتقيه هنا.. لم تكن على ثقة أنه سيكون، لكنها كانت تتأمل، والآن هو أمامها يرتدي بدلة كحلية بلحية سوداء، شكله تغير؛ أصبح أكثر وسامة بهذه اللحية التي حدت وجهه. شعره خفيف نوعا ما أو قصير، كان يتعمد إطالته حين كانا في الجامعة وقتها. جسده تغير أكثر؛ لقد ربح الكثير من العضلات. كان يهتم بجسده أصلا.

ابتسمت بلا وعي؛ إنها فعلا سعيدة جدا لأنها رأته..

تقدم سليم بخطى ثابتة.. ألقى التحية على الجميع كونه زميلهم والمدير التنفيذي للفندق.. ونزل من المنصة ليحتك بالجميع رأى علي وهاني.. سلم على دعاء ورنا.. لكن عينيه لم تفارق ليلى باللحظة التي تقابلت نظراتهما.

تقف بعيدة في زاوية ما متكئة على الطاولة العالية. بالقرب منها عصير البرتقال خاصتها بيدها، وعيناها لا تفارقان سليم.

وبعد دقائق بطيئة مرت اقترب منها على وجهه الابتسامة ذاتها.. مد يده قائلا:

"ليلى المنصوري، لقد مر الكثير من الوقت منذ آخر لقاء لنا".

أجابت بتوتر وقالت: "أجل.. لكنك تبدو رائعا جدا ومختلفا جدا، أهنئك.. أنت المدير لهذا الفندق".

قال: "وأنا أهنئك، لأنك مديرة شركة كبيرة أيضا".

ابتسمت قائلة: "هل تتابع أخباري أم ماذا؟ لكن لم نضع الوقت في اللا شيء.. انظر.. إلى أي مكان وصل بنا الحال.. يجب أن نفتخر بأنفسنا.. أليس كذلك؟".

قال بعد أن أخذ نفسا عميقا: "ما زلت رائعة كما أنت، وزادت ثقتك بنفسك أكثر.. كيف هي أحوالك؟ هل تزوجت؟ هل لديك أطفال؟".

أجابت: "أنت أخبرني إذا كنت تتابعني؟ ماذا عنك؟".

ابتسم وقال: "لقد مررت بعدة علاقات، كدت أخطب إحداهن، لكن لم يحدث النصيب.. يبدو انك مثلي لم تستطيعي تخطي الماضي.. أليس كذلك؟".

لم تكن تريد أن تقول له أن لم يلمسها أحد سواه وغيره طوال هذه المدة، وهو عاش حياته بالطول والعرض، لم ترد أن تجعله يعلم أنها كانت مخلصة له، وهو كان يمرح من حضن لآخر، فأجابت بتسرع: "أنا مخطوبة.. أقصد أنا وحبيبي قررنا الزواج".

ابتسم سليم وقال: "إذن أدعوك ليلة الغد إلى عشاء أنت وخطيبك لأرى من المحظوظ الذي نال شرف أن ترتبطي به".

حاولت أن تتهرب، لكنه أصر عليها بقوله: "هل من المعقول أنك تكذبين بشأن زوجك المستقبلي؟ وما زلت مغرمة بي".

"ذلك المغرور من يظن نفسه". كانت تفكر في نفسها لما ضغط عليها، فقالت: "لا، سنأتي غدا بالطبع وستتعرف إليه.. قد ندعوك أيضا لعرسنا قريبا".

ابتسم لها.. غفلها ووضع قبلة على خدها، ثم همس بالقرب من أذنها:

"أراك غدا يا نجمة الشمال".

غمز بعينه ثم تابع طريقه تاركًا الحفل لأهل الحفل.. ما زال يذكر نجمة الشمال، وما زال يناديها به.

لكنها صحت على نفسها وما أوقعت به حالها، كيف لها أن تخبره أن لديها حبيبًا وأنها ستجلبه غدا.. من ستأخذ ليمثل دور حبيبها.. لم تفكر إلا بشخص واحد.

خرجت مسرعة هي الأخرى من الحفل.. أخرجت هاتفها واتصلت قائلة: "سمير يجب أن أراك الآن؛ هناك شيء ضروري يجب أن نتحدث فيه معا.. أراك في شقتي بعد ساعة".

أغلقت الهاتف وهي تفكر في خطة للخروج من هذا المأزق، على أقل تقدير تمرير ليلة الغد.

*****

وصلت شقتها.. كانت قد اشترتها قبل سنتين في برج حديث البناء.. يطل على منتزه كبير تستطيع من خلال شرفتها التي تطل من الطابق الرابع أن ترى على بعد نظرها مساحات كبيرة من المدينة.

فتحت باب الشقة.. نزعت بسرعة حذاءها ذا الكعب العالي، ورمت حقيبتها على الأريكة.. دخلت مسرعة إلى المطبخ.. وشغلت آلة القهوة سريعة التحضير، ورنت مرة أخرى على سمير ليجيبها فورا قائلا: "لا تسالي أين أنا.. افتحي الباب لقد وصلت".

كان يعرف أنها تستعجله؛ دائما ما تفعل هذا.. أغلقت هاتفها وركضت إلى الباب.. لما رأته كأنها رأت منقذها، أخذته إلى أحضانها وأدخلته إلى الداخل، وهي متوترة.

قال لها: "ماذا بك؟ لقد أخفتني.. جئت مصروعا إليك وألف فكر في ذهني.. ما المصيبة التي أنت فيها".

أجابت بينما كانت تجلس على الأريكة وقالت: "إنها فعلا مصيبة ولغبائي وقعت فيها".

استدارت كل حواس سمير هذه المرة إليها، والفضول في معرفة المصيبة، كان كل ما يشغله قال: "احكي لي، وادخلي في صلب الموضوع، لست لدي القدرة على سماع أي مقدمات".

تنفست بعمق.. أغمضت عينيها، وفعلت مثلما قال لها سمير وروت كل القصة مرة واحدة قالت له: "لقد التقيت اليوم سليم.. لا تسألني من هو؟ كان حبيبي.. أقصد كنا حبيبين في مرحلة الجامعة، لكننا انفصلنا بعد تخرجنا، ولم نلتق قط منذ وقتها ورأيته اليوم، وآه! كم أصبح وسيما! لو كنت رأيته يا سمير كنت علمت ما معنى "آه" التي تحرق قلبي، حدثني اليوم عن جولاته وصولاته مع النساء وكاد يرتبط، وفهم من شكلي أنني لم أرتبط بأحد من بعده، ولكي أكسر غروره قلت له إنني مرتبطة وعلى وشك أن أخطب.. يجب أن نجد لي حبيبا بسرعة وبسرعة جدا لأنه دعاني أنا وحبيبي من أجل ليلة الغد لسهرة في الفندق الذي يديره".

أكملت حديثها وتنفست بعمق وسمير لا يزال مصدوما بما سمعه للتو؛ أول مرة يعرف أن لليلى حبيبًا قديمًا.. لم تحدثه قط عن هذا الموضوع، كما أنه لم يرها بصحبة رجل قريب منها.. لم تخرج حتى مع رجل تكن له أي مشاعر خاصة.. كان دائما يشك أنها تعيش على أطلال قصة قديمة لكنه لم يكن متوقعا أن القصه لم

تنتهِ بالنسبة إليها، لكنها فقط أخفتها في مكان بعيد من قلبها وعقلها وصبت كل مشاعرها وتفكيرها في عملها حتى وصلت إلى هذه المرحلة في رقم قياسي.

قاطعه صوتها لما نادته قائلة: "أين شردت؟ ما رأيك؟ هل ستساعدني؟".

أجابها: "وكيف تريدين مني أن أجد شخصا موثوقا يعرفك ويخبئ سرك ويتصرف مثل حبيبك وتكونين على راحتك معه.. ها كيف؟ أخبريني.. أنا لن أستطيع أن أجد شخصا يعرفك مثلي ويعرف كيف يدبر أمرك إذا حدثت معاكسة ما".

حنت رأسها إلى أحد الجوانب.. مررت عينها من فوق إلى تحت تتمعن بسمير عن قرب أكثر، فكرت "لا بأس به؛ فهو وسيم أيضا، أسمر وطويل، ذكي ومحادث ماهر". ابتسمت في داخلها لكن ابتسامتها ظهرت على وجهها.. لما رآها سمير تنبه على الفور بما تفكر وقال:

"إياك يا ليلى.. إياك أن توقعيني بهذه اللعبة معك".

تطلعت به بعيون القطط تستغل هذه النظرة كلما وقعت في مأزق وتحتاج إلى من يساعدها، وكان سمير دوما يقع ضحية هذه النظرة الحزينة التي تترجاه وكأنها تتوسل عطفه وحنانه، وكان هو طيب القلب جدا، وخاصة إذا كان الأمر يخص ليلى؛ فهو ضعيف أمامها جدا، إنها صديقته الوحيدة والمقربة.

كانت ترتدي فستانا أحمر ذا أكمام قصيرة ينحت جسدها كأنها تمثال صنعه للتو نحات أبدع في عمله، كأنه مثالي.

تحته حذاء ذو كعب عال أسود زاد من طولها عدة سنتيمترات.

جميلة هي بشعرها البني المائل إلى الشقار وجسدها الحنطي، زينت عنقها

بسلسلة ذهبية تنتهي بفراشة تحاول التحليق مثل روحها بالضبط.

وصلا هي وسمير الى الفندق الذي كان قد دعاها إليه سليم، وكانت في اليوم الذي سبق مدعوه مع مجموعة من الأصدقاء.

استقبلهم أحد الموضفين الذين كانوا قد أخذوا أوامر بالاهتمام بهم حال وصولهم وأجلسوهم في الطاولة المخصصة لهم، وبعدها بثوان فقط ظهر سليم كعادته التي لم تتغير له.. إطلالة مميزة تجعل كل من يراه يترك ما في يديه ويتابعه فقط.

يمشي باتجاههم.. يلبس بنطالا أسود، وفوقه بلوزة قطنية بياقة أيضا، يتزين معصمه بساعة رولاكس فضية وحذاء خفيف شبه رياضي بلا جوارب، حاله حال الموضة الجديدة.

تفكر ليلى بشكله، إنه رائع! تسمع سمير يقول هذا وتعتقد أنها تسمع عقلها يتحدث.. التفتت إلى سمير، ثم وصل هو إلى طاولتهم.. مد يده لتحية سمير قائلا:

"مرحبا.. وأخيرا التقيتك.. حدثتني عنك ليلى ولم أصدق أنك موجود".

ابتسم سمير كان على وشك أن يخبره الحقيقة كلها لكنه صمت: وقال: "وأنا أيضا لم أعتقد أنك موجود حتى البارحة".

قاطعتهم ليلى وهي تصدر صوتا لينتبه عليها الاثنين ولا يفسد سمير الخطة فقالت:

"احم، هل ستظلون واقفيين هكذا؟ اجلسا".

جلسا الاثنان كما قالت ليلى، وأكملا حديثهما، وكما تحدث التعارفات الأولى،

تكون الأسئلة الموحدة هي منذ متى وانت تعرف فلانًا؟ وما هو عملك؟ وكيف يجري الأمر؟ وإذا كانت هناك نقاط مشتركة يصبح الكلام أكثر متعة.

وبعد التعارف الأول طلب العشاء، كان يبدو سمير مستمتعا بالأمر، لكنه لم يكن ممثلا بارعا كما كانت هي لأنه لم يتعامل معها على أنها حبيبته، ولكنه لم يفسد الخطة.

وبينما كانا يتحدثان وليلى تبدو مثل المستمعة بينهما أتى اتصال مفاجئ من منى مساعدة سمير.

استأذن وقال: "مكالمة مهمة يجب أن أجيب".

قالت ليلى وهي لا تريده أن يتركها وحدها: "إلا يمكن تأجيلها؟".

قال: "إذا اتصلت منى بهذا الوقت يعني المشكلة التي هي فيها لا تستطيع حلها وتحتاج إلي".

أومأت برأسها لأنها تعرف أن الأمر صحيح قبلها من رأسها كأنه يقول لسليم أنا أحترم حبيبتي، لكن العمل مهم وأجاب على الهاتف في مكان بعيد عن الطاولة وأكثر هدوءًا. ترك ليلى وسليم وحدهما.

كانت تتهرب من نظراتها إليه، هي ما زالت ضعيفة جدا أمامه، وهو لم يرفع عينه من عليها.

ارتشف بعض من الشراب الذي أمامه ثم أعاد الكاس على الطاولة، كان يضع إحدى يديه على الكرسي الذي بجانبه يتكئ على حافتها لما قال: "كيف حالك يا ليلى.. كيف حالك بجد من دون تضليل؟

أجابت بتوتر: "أي تضليل؟! أنا هي أنا أمامك أو خلفك، لا أتغير، ولم

أتغير مثلك.. أنت لا تزال مثلما أنت".

ابتسم.. قال لها: "تعالي لنخرج قليلا إلى أن ينتهي سمير من مكالمته، يبدو أنها ستطول أكثر".

"إلى أين". قالت ليلى بتساؤل.

أجابها هو: "إلى الخلف، يوجد مسبح كبير وعدة مقاعد، هناك الجو بالخارج منعش، واكثر هدوءًا، هناك شيء أريد أن أريك إياه".

أومأت برأسها.. وضعت المنديل الذي افترشته بحضنها ثم نهضت وخرجا معًا إلى الخارج معًا.

وصلا إلى المكان الذي تحدث عنه سليم وقفت تنظر حولها، لما أخرج من جيبه ورقة مطوية أربع طيات وأعطاها لها..

قالت: "ما هذا؟".

أجاب: "افتحيها".

أخذتها من يده كانت ورقة قديمة تبدو مهترئة بعض الشيء، وكأنها فتحت وطورت آلاف المرات، هناك بقعة بنية على أحد أطرافها، وطرف آخر ملصق بشريط لاصق شفاف.

فتحتها ببطء، ولما رأت ما هي توسعت عيناها، ثم نظرت إليه مندهشة قالت:

"هل ما زلت تحتفظ بها؟".

ابتسم: "طبعا، وجلبتها لتريها، كنت أعتقد أنك نسيتها". قال لها.

أجابت وهي تقرأ تلك الكلمات التي خطت بيده قبل سنين في آخر يوم لهم،

وتحتها توقيع يخصهما الاثنين: "لكن كانت أقرب إلى لعبة بالنسبة إلي".

"لكنها ما زالت قابلة للتنفيذ، نحن الاثنين ما زلنا غير مرتبطين".

أجابت: "وهل تعتقد أننا يجب أن نفعل ما اتفقنا عليه مثلا أنسيت أنني مرتبطة بسمير؟".

ضحك هو غير مصدق وقال: "لو لم أكن أعرفك جيدا لكنت صدقت لكن هذه اللعبة، لن تمر علي هكذا، لا أصدق أبدا أنه خطيبك، ليس من النوع الذي تقعين بحبه".

أجابت مندفعة: "وهل أنت هو فقط النوع الذي أعشق مثلا؟!".

قال: "نعم وسأثبت لك هذا".

"أنت مغرور حقا". قالت له وهي تعزم على الرحيل.. أمسكها من زندها وأدارها إليه يجرها نحو اصطدم الجسدين.. نظر في عينيها بعمق وقال: "عيد ميلادك بعد أيام فقط أم نسيت؟! حتى ذلك اليوم سيتغير الكثير من الأشياء وقد نتزوج حينها".

سحبت ذراعها من يده وقالت: "لم نعد شبابا أو مراهقين، لقد مرت الكثير من السنين بيننا غيرت فينا الكثير، لست أنا بعمر ٢٣ ولا أنت، ولكن ليكن بالعلم أنت مدعو على حفلة عيد ميلادي التي هي قريبه جدا".

*****

## قبل ثماني سنوات...

تضحك بصوت عال مع زملائها، تحضن حقيبتها بيدها وتتكلم عن مشاريعها القادمة والأمور التي يجب أن تقوم بفعلها حتى تصبح مثل نساء الأعمال اللاتي تراهن في المجلات والأخبار.

يأتي هو من خلفها يحتضنها بقوة.. يضع قبلة على رقبتها، الكل يعرف قصة الحب التي بينهما، وكانت إحدى القصص الأسطورية التي تراهن الكثير عليها بأن نهايتها الزواج حالما تنتهي الدراسة. تستدير إليه وبدورها تقبله هي من خده، تحتضنه بقوة أيضا وتقول له:

"لقد انتهى كل شيء، لم يعد هناك دراسة ولا امتحانات، لقد بدأت الحياة الجديو الآن".

أجابها هو وقال: وهل ما زلت عند قرارك بالسفر، وتركي هنا".

أجابت: "لقد تحدثنا طويلا بالأمر وأنت موافق هي سنة واحدة فقط وسيعود كل شيء إلى مجراه الطبيعي.

أومأ براسه، ثم أمسكها من يدها وأخذها خلفه قائلا: "تعالي معي".

كان تسأله ما الذي يفعله وإلى أين يأخذها، لكنه لم يجب ثم توقف وأجلسها على العشب على الأرض وأخرج ورقة من جيبه وبدأ يكتب وقال: "هذه اتفاقية. إننا سنتزوج، لو وصلت إلى عيد ميلادك الثلاثين، ولم يكن أحدنا متزوجًا وسنوقع أدناه وسآتي للبحث عنك لو كنت غير متزوج أيضا".

عبست ليلى.. شعرت بغصة في قلبها بخوف من أن السنين تمر وقد يرى سليم فتاة أخرى ويعشقها لكنها لم تبن أي شيء له لأن أحلامها كانت أكبر من أن

تتراجع عنها، وتبقى معه، فأجابت: "حسنًا، أنا موافقة، لكن لأخبرك من الآن أن هناك آلاف من يعشقونني، وقد تكون فرصتك ضئيلة جدا".

ابتسم وهو يوقع ثم أعطاها لتوقع أيضا وفعلت. طوى الورقه ووضعها بجيبه وقال: "سأذكرك حتما لو لم تكوني متزوجة سأتزوج بك، هذا وعد".

وكان الوعد الذي قطعته هي أكبر من وعده. لم يلمسها شخص بعده، ولم تعشق رجلًا بعده ولم تفكر بالزواج من أحد غيره، لكن كبريائها منعتها من أن تبحث عنه بعد أن عادت من سفرها بعد سنة، لكنه كان قد غادر المدينة بحثا عن أحلامه أيضا، لكن ما كسر قلبها أنه غادرها برفقة فتاة.

لم يتحمل بعدها، سنة كاملة قلت فيها الاتصالات وأصبح بعدهم يكبر يوما عن يوم. لم يتحمل سليم فكرة أنه لن يراها أو انها قد تعود بفكر مختلف، أو حتى تكون قد نسيت العشق الذي بينهما، أو تناسته بسبب أحلامها التي كانت تطاردها ومهوسة بتحقيقها.. إنه رجل في نهاية الأمر ويحتاج إلى ما يحتاجه كل الرجال؛ إلى أحضان امرأة تشغله عن العالم.. تعرف وقتها على أجنبية وغادر معها إلى مدينة أخرى لما قدمت له عملا ليبدأ هو الآن بمطاردة أحلامه، لكنه لم ينسَ الوعد الذي قطعه على نفسه، وإنما ظل محتفظا بالورقة التي وقعها الاثنان، والتي تقضي بزواجهما الاثنين حين حلول عيد ميلاد ليلى الثلاثين إذا لم تكن مرتبطة وإذا تقابلوا فيما بعد، وما زال الحب يشتعل في داخلهم قد يعودون إلى بعض دون الانتظار كثيرا.

لكن كان للقدر أن يجعلهما ينتظران ولايلتقيان لسنوات عديدة، اعتقد كل منهما أن الحب في قلب الآخر قد انتهى.

أما الآن فقد تبين أن الحب لم ينتهِ وإنما كان مخدرا، ولقد صحى ويبدو أن الرياح التي هبت بينهما ستشعل الحب وتزيده.

استيقظت صباحا متأخرة، لم تتاخر هكذا منذ وقت طويل كانت قد غفت فجرا وهي تفكر ب سليم وبالورقة التي احتفظ بها كل هذه السنين.

وضعت قهوتها على النار حتى نضجت، صبتها في كوبها الخاص، ثم دخلت لتغير ملابسها بعد أن تفحصت هاتفها الذي كان مملوءًا بمكالمات فائتة من عدة أشخاص، ورقم غريب أيضا لم يكن مدونا في سجل هاتفها.

اتصلت بسمير أول الأمر، أخبرته انها لن تأتي إلى الشركة اليوم، وستاخذ ما تبقى منه استراحة، ثم رنت على رقم الهاتف الغريب، وكانت المفاجأة.

أجاب سليم من الجهة الأخرى: "مساء الخير".

أجابت هي بدهشة: "سليم، هل هذا أنت؟".

أجاب ضاحكا: "تتساءلين من أين لي برقم هاتفك صحيح".

"نعم.. كيف حصلت عليه؟".

"من سمير، أنسيت أننا أصبحنا أصدقاء البارحة، وتبادلنا أرقام الهواتف حبيبك هذا رجل ساذج جدا، أو صديق مقرب جدا لا يصلح كحبيب".

غضبت ليلى؛ فهو بالتأكيد يشك بعلاقتها الوهمية مع سمير فقالت: "لا يحق لك التحدث عن سمير هكذا، ولا أسمح لك، والآن إذا لم يكن لديك أمر مهم سأغلق الهاتف".

أجابها بسرعة: "انتظري.. توقفي.. لا تغلقي، اسمعي يجب أن أراك اليوم".

"لماذا؟".

أجابت هي بتساؤل، ما الذي يريده منها مع ابتسامة ارتسمت على شفتيها وقلبها.

"لأني يجب أن أراك؛ هناك أمر ضروري، لم ينتهِ من ليلة البارحة".

سكتت للحظة أجابت:

"حسنًا، أرسل لي العنوان، وسآتي إلى هناك".

"تمام".

قالها سليم وأغلق الهاتف، أرسل لها العنوان. أخذ مفاتيح سيارته وخرج للقائها.

كان طوال الطريق يفكر بالسنين التي فاتت منذ لحظة فراقهم لم يرد أن يقف في طريق سعادتها، ولا أن يصبح مثل عائق أمام أحلامها، تركها تختار بنفسها كل شيء لأنه أحبها كثيرا، أكثر حتى من نفسه.

كان حبه لها شيئًا مثل الغوص في الأعماق، مثل جذور تعمقت وتعشقت في التربة لا يستطيع أي إعصار بقوته الفتاكة على اقتلاعها ولم تستطع أي امرأة بعدها ان تقتلع ليلى من داخله.

كان يفشل دائما في الإبقاء على النساء من حوله لأنه دائما كان يقارنهن ب ليلى التي تركته وذهبت، ورغم ذهابها كان تستوطنه كله.

إنه يعشقها ولن يتركها لأي أحد حتى لو كان سمير هذا حقيقة، سيجعلها تتركه وتعود إليه سيخطط ألف خطة وخطة، لتصبح ليلى حبيبته من جديد ويتزوجها في عيد ميلادها الثلاثين.

لا يحتاج لعيش علاقة؛ فقد عاش الكثير لا يحتاجون سوى قاضٍ، وتوقيع وتصبح ملكه وملكته.

وصلت ليلى إلى المكان الذي أرسله لها سليم، كان قد أوقف سيارته ومتكئ عليها ينتظرها وبيده هاتفه ينظر إلى شيء ما.

ركنت هي الأخرى سيارتها، نزلت منها وتقدمت باتجاهه. أحس بتوجهها لأنه رفع رأسه ليراها تتقدم باتجاهه، عدل من وقفته ثم ابتسم. كانت ترتدي نظارات شمسية.. رفعتها من عينيها لما وصلت إليه وقالت: "ها أنا هنا.. ما هو الشيء الذي تريد أن تتحدث به".

ابتسم وقال: "لقد اشتقت إليك فعلا، كل هذه السنين التي مرت كأنها البارحة".

لم تستطع أجابته، تنفست بعمق، كانت لا تستطيع حتى قول كلمة واحدو. معرفتها أنه كان يشتاق لها أو اشتاق لها، جعلها للحظة تنسى كل شيء، ولم تكن تريد سوى أن ترتمي بأحضانه فقط كما كانت تفعل قبل زمن فات كلما تقابلا.

أكمل قائلا: "هل نمشي قليلا يا ليلى؟ يجب أن نتحدث".

أومأت برأسها موافقة.. وأخذها يتمشى قليلا، سكتا لعدة دقائق ثم قالت:

"لماذا لم نبحث عن بعض قبل الآن".

أجاب "لاننا متكبران، غبيان، فضلنا غرورنا، وكبرياءنا على قلبنا".

قالت: "لم يعد ينفع الكلام، لقد سرى الكثير من الماء تحتنا وتغيرت الكثير من الأشياء".

"صحيح..." قالها ثم توقف، توقفت هي الأخرى، وقالت: "لم توقفت؟".

أجاب: "لأني أريد استعادتك، لا أريد أن أخسرك مجددا، نحن مقدران لبعضنا بعضًا.. إلا ترين لم ينجح أي منا بعلاقة أخرى".

قالت بسخرية: "من قال إني فشلت؟ وماذا يعني سمير إذن؟ إنه خطيبي المستقبلي.

ضحك سليم ملء فمه وقال: "لا أصدق البتة.. وسأثبت لك".

قالت: "ستبقى هكذا، لن تتغير، وأنا الغبية، أتيت مثل الحمقاء خلفك ما زلت حمقاء".

"لا، لست حمقاء بل عاشقة، ما زلت تعشقينني كما أعشقك أنا".

قالت: "حسنًا، لكن نحن لن ننفع بعضنا، ستظل هناك حفرة واسعة بيننا تسحبنا إلى داخلها كل مرة".

أجاب: "لن أسمح بعد الآن، لقد عدت للأبد".

"فات الأوان".. أجابت هي وحملت نفسها وغادرت عائدة إلى المنزل.. حاول إيقافها، لكنها لم تسمح له، فكر أنه لن يبقى دون فعل شيء ما.. إنها لا تزال تتكبر ولا بد من تحطيم هذا الغرور.

أخرج هاتفه من جيبه، اتصل بسمير، واتفقا على الخروج للسهر هذه الليلة، وجلب ليلى أيضا، وافق سمير بسرعة.. لقد أحب سليم ويتمنى من كل قلبه أن يعود سليم وليلى لبعضهما بعضًا.

كانت ليلى تأخذ حماما ساخنا وصوت الماء الذي يجري فوق رأسها قد أضاع صوت شهقات بكائها.

تبكي بحرقة تحت الدوش حتى تختلط الدموع بالمياه، ولا تشعر بها، تبكي بحرقة سنين ضاعت من عمرها وهي لا تزال تعيش على ذكريات ماض لا يريد أن يتركها وحالها.

تبكي من أجل قرارات ندمت في وقت ما أنها اتخذتها ولا تريد أن تبدو منكسرة لأنها قوية، قوية جدا هذا ما كانت تقوله وتردده لنفسها دائما، تحت قناع الجدية والعملية يوجد الوجه الحقيقي الخفي.

تتوقف عن البكاء وتنتهي من الحمام تخرج متعبة هالكة، ترتمي على السرير وقبل أن تغمض عينيها يرن هاتفها.. أجابت، كان سمير:

- الو.
- ليلى أنا واقف بالباب افتحي.

تنهض ليلى باستغراب، وتسأل: "ما الذي أتى بك؟ هل حدث شيء مهم بالشركة؟".

يجيب سمير قائلا: "لا، لكن عليك أن تتحضري؛ لقد دعانا سليم مرة أخرى إلى المكان الذي كنت أريد أن أذهب إليه كثيرا، ولقد وافق، حبيبك هذا له ذوق خاص جدًّا".

نهرته ليلى وقالت: "لا تقل حبيبك؛ ليس لدي حبيب".

قال: "ليس مهما الآن، هل سنظل نتكلم وأنا واقف خلف الباب؟ افتحي هيا".

أغلقت الهاتف وذهبت لتفتح الباب، دخل وحدثها عن أمر السهرة، لم تكن تريد الذهاب، ستراه للمره الرابعة خلال يومين، وهذا كثير جدًّا عليها، إنه يشوش عقلها وكل مرة تراه فيها تريد أن تعانقه وتقبله، لكنها تمسك نفسها بصعوبة، لكن إصرار سمير وتوسله أن تذهب معه وافقت من أجل صديقها الذي لمح لها أنه يسدي لها خدمة أيضا بتمثيله أنه حبيبها.

غيرت ملابسها بملابس سهرة تليق بالمكان الذي سيذهبون إليه، ثم غادرا فعلا إلى المكان المتفق عليه.. كان صالة كبيرة للرقص مع بار يقدم عشرات المشروبات باختلافها من مشروبات روحية أو غازية أو حتى عصائر طبيعية.

تلقاهم سليم وكان بصحبة فتاة شقراء، وهذا ما لم يعجب ليلى قط، كادت تجرها من شعرها وتلقي بخصلاتها الاصطناعية في القمامة لكنها لم تود أن تبدي أي ردة فعل تجعل سليم يتأكد أنها ما زالت تعشقه مثل المجانين بل اكتفت بتجاهلهم معظم الوقت، لكن سليم كان يتحرش بها بالكلام في كل مرة تسمح الفرصة وهي تحاول أن تكون هادئة قد الإمكان، أمَّا سمير فقد استمتع جدًّا بوقته لأنه كان يريد أن يكون في هذا المكان منذ وقت طويل ولكن لم يسمح له الوقت.

كانت مداعبات سليم للفتاة الشقراء تزعج ليلى فقالت لها: "لا يغرك ما يفعل الآن؛ فهو حتما سيرحل قريبًا مع واحدة أخرى فهذه طبيعته".

أسمعته الكلام، ابتسم ولم يعطها المجال ورد هو قائلا: "آه، من يسمعك يقول إنك مضحيه جدًّا، وأنت من تقدمين نفسك على الآخرين.. أليس كذلك؟".

ندمت لأنها تحدثت معه.. غضبت لأنه اتهمها للتو بالأنانية. لم تكن يوما أنانية، بل حاولت أن تحقق حلمًا لها.. حاولت أن يكون لها شيء، لكن ماذا فعل هو؟ تركها وغادر مع امرأة أخرى.

أجابته بغضب: "على الأقل لم أخن قط كما فعل غيري.

ردها وقال: "وأنا لم أبتعد لأنني أفكر بنفسي فقط".

هذه المرة فاق الحد أكثر والشقراء تراقبهم، وما كان من ليلى إلا أن أخذت كاس العصير الذي أمامهم، ودلقته عليه وقالت: "وهذا من أجل غرورك الذي قد زاد على حجمه".

تركت الطاولة وذهبت بالقرب من سمير.. طلبت منه المغادرة، لم يرضَ؛ فغادرت هي. خرج سليم خلفها وبينما هي تمشي بسرعة للوصول إلى سيارتها صاح بصوت عالٍ: "هذا ما تفعلينه دائما؛ تهربين، ولا تواجهين، دائمًا تختارين الاستسلام، والابتعاد.. تعتقدين أنك ستشفين نفسك بالانعزال، وهذا ما فعلته أول مرة ابتعدنا فيها عن بعض.. أنت لا تفكرين بنا كثنائي، تاخذين القرار وتنفذيه ولا يكون لدي أي دور سوى أن أوافق على ما قررت".

استدارت إليه وفي عينيها الدموع: "كل ما أردته سنة واحدة، أن تتحمل سنة فقط، ولكن أنت ماذا فعلت؟ غادرت مع أخرى.. لقد رأيت الأسف والشماتة في عيون الجميع بعد أن عدت من سفري. ماذا كنت تريد مني أن أفعل؟ هل أبحث عنك وأعيدك إلى أحضاني.

قال لها: "سنة كاملة.. انتظرت سنة، لكنك ابتعدت في هذه السنة كثيرا، كنت أتوسل الحديث معك، ولم يكن لديك الوقت، وتبررين بعدك بأنك مشغولة

ومتعبة، وأنا تحملت، حتى فهمت آخر الأمر أني رقم ٢ في حياتك، وهذا ما لم أوده.. كنت أريدك ١ كما أنا أعتبرك".

ضحكت بهستيرية وباستهزاء وقالت: "هل تصدق ما تقوله؟ لو كنت رقم واحد كنت تحملت. هل تعتقد أن بعدي كان سهلا؟ أنا كنت أعشقك يا هذا".

صرخ هو بصوت أعلى وقال: "وأنا.. أنا كنت متيم بك وما زلت".

لم تجبه مسحت دموعها من على خدها وقالت: "اذهب إلى الشقراء ذي الشعر المزيف؛ فنحن لا نستطيع عيش ما عشناه مرة أخرى.. سنبقى نحمل الذنب وأحدنا يأتي على الآخر.. اذهب أرجوك".

استدار وعاد أدراجه أمام عينيها، لكن ليس استسلاما وإنما ليحقق الخطوة الأخيرة، أما هي عادت إلى منزلها وكل مقاومتها لكي تدفن حبها باءت بالفشل، بل طاف مجددًا فوق قلبها وعقلها أيضا.

*****

الحياة لا تعطينا كل ما نحب، ولكن من نحبهم يعطونا كل الحياة. الحب الحقيقي لا يموت.. الحب الحقيقي يبقى حتى النهاية.

عاد سليم إلى الصالة حيث كان سمير جالسا عند البار غير عالم بما حدث للتو بين ليلى وسليم، ولا يدري حتى أن صديقته رحلت من جديد، إنها دائما تهرب لأنها لو بقيت ستضعف أمامه بالتأكيد.

أزاح الكرسي بجانب سمير وجلس، قال للساقي أن يضع له كأسًا من مشروب خاص.. استدار إليه سمير وقال: "إنه مشروب ثقيل؛ نصيحتي، لا تشرب كثيرًا.

ابتسم سليم وقال بخبث "ما رأيك برهان لو استطعت شرب ثلاث كؤوس سأخرج لك بطاقة عضوية لمدة سنة كاملة".

توسعت عينا سمير غير مصدق بما يسمعه.. تجرأ بالفعل ووافق وبدأ النزال.. كان سليم يعرف بالضبط ماذا يفعل.

كأس بعد الأخرى، وبعد كل كأس يمتص نصف ليمونة مملحة، هكذا كانت العادة، حتى أتم الكؤوس الثلاث لكن كان ثملا أيضا، وهذا ما كان يريده سليم بالفعل أن يثمل سمير حتى يعرف أصل الحكاية.

مرت الأيام بعدها بتوتر كأن ليلى تدفن نفسها في العمل ولا تعود لساعات متأخرة حتى لا تعطي الوقت لعقلها بالتفكير بسليم.. يومان فقط، كان كافيلن ليزعزعا حياتها ويقلبها رأسًا على عقب.. كان تكفي مرة واحدة لرؤيته ليشوش عقلها ويفتح باب قلبها مرة أخرى.

كان يكفي فقط أن تتذكر حدثًا واحدًا لهما معًا لتعود إليه وتحترق مثلما تحترق الفراشة حينما تعود للنار، حتى سمير لاحظ تغيرها وقلة صبرها وغضبها المستمر، وفهم كل شيء، بل كان متأكدا أن ما يحدث لها بسبب سليم. حاول أن يحدثها وأن يخفف عنها، لكنها كان ترده وتغلق الموضوع وكأن شيئًا لم يكن.

عائدة هي إلى منزلها في الليلة التي تسبق عيد ميلادها كانت متعبة جدًّا، حتى سمير لم يكن موجودًا بجانبها ذلك اليوم لأنه اتصل وطلب أن يرتاح بحجة نزلة برد قوية.. وصلت إلى شقتها أدارت المفتاح في الباب ودخلت، قبل أن تضيء الأنوار أُضيئت من نفسها، أو أضاءها أحدهم.

كان سليم.. دهشت لما رأته قالت: "كيف دخلت إلى هنا؟ وكيف تتجرأ؟".

تقدم ببطء وقال: "من تعتقدين مثلا؟".

استدارت لما سمعت صوته قادما من المطبخ، يحمل بيده قالبًا من الكيك، وعليه شمعة واحدة مكتوب عليها "عيد ميلاد سعيد". أكملت قائلة: "سمير ما الذي تفعلونه هنا".

أجاب سليم: "لا تغضبي من سمير، لقد كانت خطتي ولأني أعرف أن سمير صديقك المقرب لا حبيبك كما توقعت، قلت أن نحتفل مبكرا بعيد ميلادك".

أجابت: "ما الذي تقصده؟". وهي تنظر إلى سمير لتفهم ما الذي يحدث بالضبط.

فقال سمير: "لا تنظري إلي.. حدث ما حدث، ولم أستطع أن أخبئ أكثر".

بانت على وجهها نظرة كخيبة أمل وسقطت حصونها وتزعزعت ثقتها، ثم سمعت سليم يقول: "كان يكفي كأس واحدة لجعل سمير يغرد بكل شيء، لكنه شرب ثلاث مما جعل الخطة أكثر سهولة".

قالت متسائلة: "ما الذي فعلته يا سليم؟".

*****

**فلاش باك..**

يوم الحفلة وبعد أن شرب سمير الكؤوس الثلاث كان في حالة يسمح له بأن يقر بأي شيء وأن يقوم بفعل أي شيء يطلبه منه أي أحد.

كان في حالة سكر غريبة كأنه تناول عقارا يجعله يخبر كل أسرار حياته لأي شخص كان غير مبالٍ وغير عارف بأي أحد أو شيء.

أخذه سليم ليخرجه من الصالة بعد أن فهم أنه قد يُعرَّض للخطر وهو بهذه الحالة.. وبينما هما يخرجان من الصالة توقف سمير بالقوة وهو يترنح يمينا ويسارا وقال: "هل تعلم أنك غبي جدًّا يا سليم".

ابتسم سليم.. لم يرد لأنه يعرف أن سمير يتحدث بتأثير الشراب فأكمل سمير قائلا: "كيف تترك ليلى تضيع من بين يديك؟ أنت فعلا غبي أرأيت هذا؟".

قال سليم له: "ولمَ تقول هذا؟ أليست حبيبتك؟ لقد ربحتها.. هنيئا لك".

ضحك سمير بقوة وهو يدخل السيارة بمساعدة سليم وقال: "أنا وليلى صديقان؛ لقد مثلنا عليك ويبدو أنني أمثل جيدا.. يجب أن أشارك في فيلم ما.. ما رأيك؟".

ابتسم بكل فرح لأنه فعلا كان على حق.. وليلى لم تحب أحدا سواه.. قال: "يعني أنت وليلى ليس بينكما شيء.. صحيح؟".

أجاب سمير وقال: "اووهو.. ليلى لم تعشق أحدا قط.. لم أرها بصحبه رجل قطط.. وأنت يجب أن تتزوجها كما وعدت.. أليس كذلك؟".

قال سليم: "هل هي من أخبرتك عن قصة الزواج أم ماذا؟".

أجاب سمير بثقل المشروب على لسانه: "لا.. لكني سمعتكما تتحدثان يوم لقائنا الأول.. لست ساذجا جدًّا، لكني صديق وفي".

لم يصدق سليم ما يسمعه من سمير.. تحتضنه بقوى كأنه أعاد له الأمل.. أخذه عائدا به إلى منزله، وبات تلك الليلة عند سليم، وفي اليوم التالي شرح له سليم كل شيء، واتفقوا على أن تكون ليلى زوجة سليم في عيد ميلادها الثلاثين.

نهاية الفلاش باك..

كانت ليلى غير مصدقة لما تسمعه من الرجلين الجالسين أمامها.. تنظر إلى هذا وذاك؛ حبيبها الذي لم تعشق غيره، وصديقها الذي تأتمنه على حياتها، وكيف اتفقا هما الاثنين وأوقعا بها هكذا.

نهض سمير من على الأريكة الجالس عليها وقال: "هل سنبقى ننظر في بعضنا بعضًا هكذا؟ إلا يكفي سنين الفراق.. أعتقد أنكم يجب أن تفكروا بجدية في علاقتكما أو بالأحرى زواجكما يا صديقي، وهذا الكيك، ألن تقطعيه؟ أريد أن أتذوقه.

ابتسمت ليلى، أخذت الكيك منه، قطعته، أخذه منها سمير وبدأ بالأكل، أما سليم فما زال ينتظر منها ابتسامة فقط.. قال: "لنكمل حياتنا مع بعض يا ليلى؛ لقد تبين لكلينا أننا لا نستطيع إلا أن نكون لبعضنا بعضًا".

قالت بتردد: "لا أدري".

أمسكها من يدها قبل راحة كفها وقال: "في هذا الكف فقط أرى راحتي وطمأنينتي. لا تحرميني منك بعد يا ليلى، أرجوك وافقي.

أجابت: "على ماذا؟

ركع أمامها، أخرج من جيبه محبسًا ألماسيا.. وفي نفس اللحظة يعود سمير ليشهد على أجمل حدث حصل أمام عينيه.

يقول سليم: "تعالي لنربط عمرنا معًا، ونصبح شخصا واحدا.. هل تتزوجين بي يا ليلى.

نظرت له غير مصدقة.. دمعت عيناها.. عقد لسانها.. لم تستطع الإجابة.. أزاحت عينها إلى سمير ورأته يومئ برأسه لها وكأنه يقول "وافقي".

أعادت نظرها لسليم الذي لا يزال راكعًا أمامها وبيده الخاتم.. ابتسمت من بين دموعها وقالت: "نعم.. نعم أوافق على الزواج منك". ليطير سليم فرحا.. يحملها ويدور بها.. يتوقف فيضع الخاتم في إصبعها.. يحتضنها.. يقبلها.. كم اشتاق لشفاهها.

سمير من الجهة الأخرى يبارك لهما.. قال: "الحمد لله.. خطتنا ستنجح".

قالت باستغراب له: "عن أي خطة تتحدثون".

أجاب سليم: "سترين غدا".

"غدا، ماذا هناك غدا؟".

أجابت بتساؤل: "لكن لا أحد أعطاها طرف خيط لأنها مفاجأة".

كانت ليلة طويلة، لكن مليئة بالحب والسعادة.. تركها سليم فجرا لتنام.. وأخبرها أنه سيمر عليها في الثالثة ظهرا في اليوم التالي أي يوم عيد ميلادها.

مرت الساعات التالية ووجدت ليلى نفسها تركب سيارة سليم وهي ممسكة بيده طوال الطريق إلى المكان الذي يأخذها إليه.. يصلان فتستقبلها متعهدة حفلات.. تمسكها من يدها وتدخلها إلى غرفة خاصة وعندما تدخل تجد فريقا متخصص بالتجميل، ثم تجول بعينها لترى ماليكانا ترتدي فستانا أبيض رائع الجمالح فتفهم لماذا هي هنا، إنه يوم عرسها، كما كان قد تقرر قبل عدة سنين.

تجلس ليحضرها أخصائي التجميل.. ويبدأ العمل على العروس لتطل بأبهى طلة.. ترتدي فستانها بعد ذلك وتستعد للخروج إلى عريسها.

يأتي سمير ليمشي معها ويوصلها إلى طاولة عقد القران حيث سليم ينتظرها مع شاهدين على الزواج.

كانت رائعة الجمال كأميرة خرجت من الأساطير وتوجت ملكة على قلب سليم.. ينطبق عليها قول كاساندرا كلير في أحد اقتباساتها.

"أستطيع أن أبوح بحبي لك في أول مرة رأيتك فيها، ولكنني أتذكر أول لقاء حدث بيننا عندما نظرت لك وأنت قادم نحوي ثم أدركت بأن كل العالم قد بدأ بالتلاشي عندما كنت معك". "كاساندرا كلير".

يعقد القران بكلمة نعم من الطرفين ويصبحان زوج وزوجة يقبل العريس عروسة وتبدأ حياتهما بابتسامة حب تختزل كل سنين الفراق.

*****

# القصة الرابعة
# إني ملكك -اعترافات كاهن.

صوت جمهرة بعض الآباء الكهنة في الرواق يتهامسون بصوت منخفض مضطربين وهم يتساءلون عن حال الكاهن الأكبر بينهم عمرًا "الأب افرايم".

كانت قد ساءت حالته كثيرا في الأيام الأخيرة والآن الطبيب في غرفته في هذا الوقت من الليل.. كان قد دخل مع الطبيب الكاهن الذي تتلمذ على يد الأب افرايم فاتخذه الأب توماس أباه الروحي واتخذه الأب افرايم كاهن اعترافه، وفي الأيام التي مضت كان يسهر الأب توماس على راحة الكاهن افرايم وخاصة بعدما أقعده المرض فراشه.

كان الطبيب المختص يفحص الكاهن الشيخ بسماعاته الطبية، ونظر إلى نبضات قلبه بواسطة عد النبضات في ساعده الأيسر.. تنهد الطبيب وهو يغلق حقيبته الطبية، وكتب على روشيتته الخاصة أن ينقل للمشفى في أقرب وقت لأجل الاهتمام به عن قرب.

أكد له توماس انه سيفعل هذا، وشكر تعبه من أجل قدومه في هذا الوقت.. خرج الطبيب من الغرفه فتلقاه الكاهن المسؤل عن الدير بصحبته الرهبان الذين نذروا أنفسهم لله بالتعبد والصلاة، وكان على وجههم الحزن من أجل الكاهن افرايم كاهن كنيستهم التابعة للدير.

فسأله الأب الرئيس وقال: "كيف حال الأب افرايم".

أجاب الطبيب بقلة حيلة وقال: "الحالة الصحية لا تبشر بخير.. يبدو أن قلبه قد ضعف كثيرا، وأي تدخل طبي سيجعله يصبح أفضل، لكن أنا أرى أن يدخل إلى المشفى حتى نخفف عنه الآلام متى يسلم روحه للرب".

ارتسمت على وجه من سمع كلام الطبيب علامات الأسى والقهر في الكهنوت.. الإنسان يسلم روحه لله؛ فلا يخاف الموت، وإنما ينتظره على رجاء القيامة في المجيء الثاني للرب، لكن الطبيعة البشرية دائمًا ما تحزننا وتجعلنا نعود ونفكر بأن الموت هو إحدى طرق الفراق المؤلم.

زفر الكاهن الرئيس وقال: "سأفعل ما يريده الأب افرايم؛ فهو قد أوصاني أنه إذا جاءت ساعته فإنه يريد أن يسلم الروح في الدير وليس بمكان آخر وأنا احترم وصيته، وسنفعل ما بوسعنا حتى نخفف عنه الآلام".

قال الطبيب: "وأنا سأمر كل يوم لرؤيته.. صلوا من أجله يا أبت".

"السلام والأمان معك يا بني".

رسم علامة الصليب على وجهه ثم هب بالخروج، فدخل الأب الكاهن الرئيس إلى غرفة الأب افرايم، وصلى له وطلب من الأب توماس أن لا يتركه أبدا، وما كان من الأخير إلا أن ينفذ الأمر بكل سرور.

ينام بكل هدوء على سريره القديم.. لا توجد في غرفته سوى سرير بلحاف قد مر عليه من الزمان الكثير وحتى كان قد نسي من أي سنة هو.. مكتبة ومنضدة صغيرة في آن واحد للكتابة وبقربها كرسي قديم أيضا قد تقشرت صبغته البنية وضهر تحتها اللون الأصلي للأخشاب بسبب كثرة الاستخدام.. توجد على المنضدة أقلام وأوراق كان يكتب فيها ما تمليه عليه روحه، وقد كتب الكثير

الكثير لسنوات منذ أن نذر نفسه لله.

توجد خزانة للملابس ليس فيها الكثير؛ فقد تعوَّد أن لا يكون في الخزانة سوى أربع قطع؛ قطعتين للباس الشتوي، وقطعتين للباس الصيفي، والأسود هو اللون الموحد. كان يتقنن في كل شيء ليس لأن حالته لا تساعده في أن يشتري الأفضل أو يقتني الأغلى، بل لأنه عود نفسه القليل ليدرب نفسه على الفقر، ليس جسديا فقط، بل روحيا أيضًا.

ينام بهدوء بعد أن أعطاه الطبيب مسكنا لجعله يرتاح حتى لا تسوء حالته أكثر. رجل قارب الثمانين من عمره ضعيف البنية، ذو لحية رمادية طويلة نوعا ما بشعر خفيف كان قد خف على مر السنين، عظام فكة بانت لشدة ضعفه؛ فقد كان يصوم بكثرة وينقطع عن الطعام كثيرا ليدرب روحه على قتل الشهوات في داخله.

جثا الأب توماس بجانبه على الأرض. لم يرضَ الجلوس حتى على الكرسي الموجود في الغرفة.. أراد أن يكون بالقرب من معلمه مثلما علمه يوما ما عن التواضع، وقال كما هو مكتوب: "من أراد أن يكون كبيركم يجب أن يصير خادمكم لأن من تواضع لله رفعه". فكان الأب توماس يحفظ كلام معلمه عن ظهر قلب.

شعر بحركة خفيفة بعد مضي ساعة عن مغادرة الطبيب صوت ورنة تخرج مع أنفاس الأب افرايم فنهض على الفور ليجسه أن كان استيقظ ويحتاج لشيء فقال: "هل أنت بخير يا أبتي".

أجابه الأب افرايم بصوت خافت متعب مرهق، وقال: "أنا بخير، لكن يجب أن تقوم بسر الاعتراف ومسحة المرضى قبل أن أموت فلا أريد أن أموت

قبل آخر اعتراف"..

أجابه الأب توماس قائلا: "لقد اعترفت قبل يومين.. يكفي مسحة المرضى.. لا تتعب حالك أكثر.. أرجوك اختزن طاقتك".

كح قليلا ثم أجاب: "هناك اعتراف لم أفصح عنه من قبل لأحد، وأريدك أن تحلني من خطأي.. الرب يعرف كل شيء، لكنه تقليد الكنيسة و لا أريد أن أموت وأنا قد أخفيت عن أب اعترافي فلتغفر أخطائي على الأرض، وليغفر لي الأب السمائي أخطائي في السماء عاملا بوصية يعقوب الرسول بالاعتراف بالزلات حيث قال "اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات وصلوا بعضكم لأجل بعض لكي تشفوا طلبة البار تقتدر كثيرًا في فعله".

أجابه الأب توماس موافقا عند رغبته في الاعتراف وطلب منه أن يمهله دقائق من أجل أن يجلب القربان المقدس مع الزيت المقدس وملابس الصلاة الخاصة.

وبعد مضي دقائق كان الأب توماس يجلس بالقرب من الأب افرايم طالبا منه أن يتلو سر التوبة فقال: "أعترف لك بخطيتي، ولا أكتم إثمي.. قلت أعترف للرب بذنبي وأنت رفعت آثام خطيتي.. ارحمني يا الله حسب رحمتك حسب كثرة رأفتك.. امح معاصي.. اغسلني كثيرًا من إثمي ومن خطيتي.. طهرني لأني عارف بمعاصي وخطيتي أمامي دائمًا إليك وحدك أخطأت والشر قدام عينيك.. صنعت لكي تتبرر في أقوالك، وتغلب في قضائك هاأنذا بالإثم صورت وبالخطية حبلت بي أمي.. استر وجهك عن خطاياي وامح كل آثامي". "مزمزر داؤد النبي".

فأجابه الأب توماس وقال: "سأحلك يا أبتي الآن.. وأطعمك من جسد الرب".

أجابه الأب افرايم وقال: "كلا، ليس الآن.. اسمع خطيئتي اولا ثم أكمل عملك".

عاد الأب توماس وجلس بالقرب منه وبدأ بالإصغاء إلى ما يقوله الأب الكاهن افرايم.. وهو يعود بذاكرته إلى ٤٠ سنة مضت.

كنت في عقدي الأربعين حين أوكل لي بكنيسة ورعية في أحد الأحياء الفقيرة في مدينة "لافيرو.. المدينة خيالية" في ولاية تكساس وكانت هذه المدينة تشتهر بملاهيها وباراتها أكثر من كنائسها وكان الناس يرتادون هذه الملاهي والبارات ويعملون فيها أكثر من ارتدادهم إلى الكنيسة.

ولم أكن كما الآن.. كنت لا أزال شابا وسيما بجسد صحي وما زال شعري الأشقر خاليا من البياض الذي فيه.. كنت رجلا نشيطا في خدمة الكنيسة وسعدت بهذه التكلفة التي كلفت لي لأني دائمًا ما كنت أحاول أن أغير الحياة من حولي وأن أعيد الخراف الضالة إلى قطيع الرب، وكنت أفعل المستحيل حتى أجمع الناس وأعود بهم إلى حضن الكنيسة كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها.

حاولت كثيرا في بعض الأحيان أنجح وفي بعض الأحيان تتغلب الطبيعة الإنسانية عليَّ بقوة من الشيطان لكني كنت دائمًا أصلي من أجل الأرواح الضائعة والأرواح التي تغلبت عليها الشهوة بكل وجوهها.. لكل روح ابتعد عن الرب وبيته، لكل نفس ماتت وهي ما زالت على خطيئتها ولكل شخص لديه في قلبه نور صغير يشع من داخل العتمة.

كان يوم الأحد وبعد انتهاء القداس ومغادرة المصلين الذين يعدون على الأصابع.. تقربت إحدى النساء التي كانت تأتي باستمرار لسماع الموعظة والترتيل وكنت أعرفها؛ كان اسمها سارة فتاة ثلاثينية، أم لطفلين صغيرين.. وكانت سارة امرأة طيبة أرملة توفي زوجها بسبب مرض خبيث، وكانت أمها ترعى أطفالها بينما هي تعمل في مطعم قريب من منزلها.

وكانت لا تنقطع عن الكنيسة في كل أحد.. أجدها تمسك بمسبحتها وتصلي منذ الأشهر الستة التي قضيتها هناك في تلك المدينة..أما ذلك الأحد فقد أتت متأخرة بعد انتهاء القداس لكن لم تأتِ فارغة اليدين بل كانت قد جلبت معها صديقتها ولأول مرة أرى هذا الوجه يدخل كنيستي.

ابتسمت من بعيد لما رأيتها تدخل وتجلس في الصف الثالث من المكان المخصص للجلوس وبجانبها صديقتها تقدمت منهم بعد أن عرفت أنها أنهت صلاتها وقلت: "لقد تأخرتِ يا سارة اليوم، وليس من عاداتك كما أعرفك".

أجابت وهي مبتسمة: "لقد كان لدي عمل طارئ ولم أستطع الخروج مبكرا، لكني جلبت صديقتي كاترينا وأقنعتها بالقدوم بصعوبة".

ابتسمت بحنية وهي تنظر إلى صديقتها.. كانت كاترينا فتاة بعمر سارة لكن مختلفة جذريا.. كانت فتاة سمراء بشعر قصير يبدو أنها قد صبغته بلون أحمر مائل إلى برغندي بعينين سوداوين كبيرتين، وشفتين مكرزتين ورديتين.. كانت جميلة جدًّا وجمالها مريح للعين.. نظرت إليها وقلت: "أهلا وسهلا بك.. أبواب كنيستنا مفتوحة للجميع. كيف حالك؟".

أجابت كاترينا وقالت: "أنا بخير.. شكرا، لكن بصراحة، لست من الذين يترددون على بيوت الله؛ فأنا لا أؤمن بوجوده".

ابتسمت.. كان كلامها لا يعكس بما رأيته في عيونها.. كانت تتحدث وكان الله قد خيب ظنها في قدرته "حاشا لله" ولكن عينيها كانتا جائعتين لمعرفته أكثر.. كانت تريد التقرب منه لكنها مجروحة في قلبها.. ستقول كيف عرفت أيها الأب توماس، وساخبرك كيف.

كانت تتحدث وفي عينيها تتجمع كل دموع العالم دون أن يراها أحد.. كان تخرج من شفتيها الكلمات وهي ترتجف خوفا.. كانت تريد أن تعرف إلهًا غير الإله الذي تعرفه.

فقلت لها: "لا يوجد شخص بهذا العالم لا يعترف بالله، ولكن لكل منها إلهًا مختلفًا و بآخر الأمر يصب في إله واحد لا شريك له".

أجابتني وقالت: "لن تقنعني.. أتيت اليوم من أجل صديقتي لأنها ألحت عليَّ، ولكن لا يعني هذاأني مقتنعة".

أجبتها وقلت: "وما الذي لا تقتنعين به؟ أخبريني وأنا أجيبك لو كان هناك تساؤل في عقلك.

قالت: "لو كان الله رحومًا كما تقولون لما جعل الأطفال يعانون حين يأخذ روح أحد الوالدين وهم أطفال.. لمَ لا يؤجل الموت حتى يصبح الأطفال كبارًا يستطيعون أن يعتمدوا على أنفسهم؟ أن يعيشوا الحياة ويحسوا بالحب الأمان في كنف والديهم".

حينها تأكد أنها مجروحة أو تشعر بنفسها أن الله خيب ظنها، وتخلى عنها بسبب فقدانها أمها أو أبيها، فأجبتها وقلت: "لله أوقات تحت السماء وهو يعرفها جيدا، ثم إنه لا يدخلنا في تجربة إلا وكنا نستطيع الخروج منها، الله يعرف قدرة كل منا على التحمل فيجربه على قدرته، ولكنه دائمًا معنا يسندنا بصورة غير مباشرة؛ فمثلا لو أخذ منا شيئًا ما سيعوضنا بأمر أفضل، ولو تعذبنا قليلا سيجازي عذابنا بنعمة أفضل".

أجابت ضاحكة وكأني أمزح معها وقالت: "لم يعد هذا الكلام يؤثر في؛ فكله يغدو في مهب الريح.. أنتم الكهنة تقنعون أنفسكم بهذا الكلام، وتقنعون الناس السذج البسطاء لتجعلوا منهم رعية لكم وتابعين فإذا لاتوجد رعية لا توجد سلطة.. أليس كذلك؟".

قلت: "ما رأيك لو تأتين غدًا، وسنتحدث أكثر بالأمر.. الآن لدي موعد مع مريضة لأزورها".

قالت: "لمَ تريد مني أن آتي؟ لقد أخبرتك بما أعتقد ولن أغير اعتقاداتي بعد الآن".

قلت: "أنا لن أجبرك على تغير اعتقاداتك، بل سنتحدث أكثر ما رأيك؟".

شجعتها سارة على أن توافق ووافقت.. واتفقنا على موعد آخر للقاء في اليوم التالي.

*****

كان الأب توماس يصغي باتقان إلى كل كلمة يقولها له الأب افرايم حاضنا الإنجيل المقدس إلى صدره.. يستمع إلى القصة التي يرويها له الكاهن المريض الذي فضل البوح على الراحة في ساعاته الأخيرة وقال: "افهم لماذا أصررت على السيدة كاترينا بأن تلتقي معها مرة ثانية، لكن ما هو السر الذي خبأته؟ هل له علاقه بها؟".

أراد الأب افرايم أن يعدل من جلسته ويسند ظهره؛ فساعده الأب توماس، ثم أجابه بعدها: "آه يا بني، لقد كانت هي السبب والنتيجة والسر والبوح معا".

تطلع إليه توماس وكأنه يقول له "أكمل". كانه يقرأ كتابا وتبين أنه يشده بكل فصل أكثر من الذي قبله

فاستطرق الأب افرايم وقال: "وجاءت في الموعد المقرر بلا ثانية زائدة أو ناقصة، بشعرها المربوط إلى الخلف وفستانها الأصفر ذي الأكمام القصيرة كانت قد وضعت شالا خفيفا عليها يغطي الصدر شبه العاري من الأمام.. كان كل شيء فيها فتنة تجذب الانتباه.

جلست في المقعد قبل الأخير وكان هناك امرأة عجوز تصلي لما رأتها نهرتها بنظراتها فانتبهت لكاترينا وهي تستر نفسها أكثر وكأنها ليست نفس الفتاة التي التقيتها قبل هذه المرة تلك الفتاة كانت أكثر جرأة.. ما الذي حدث بعد لقاء واحد فقط؟ لا أدري.

ابتسمت لها بعد أن رأيت أن كل الكنيسة فارغه لا أدري لماذا تأكدت من فروغ الكنيسة أولا قبل أن أذهب إليها.. تقربت منها وجلست بجانبها.. نظرت إلي بعينيها الكحليتين وقالت: "اعذرني على ملابسي هذه غير المحتشمة أتيت من

مكان عملي إلى هنا فورا.. لم يكن لدي وقت لتغير ملابسي بالذهاب للمنزل.

أجبتها وقلت: "لا عليك، لكن ما الذي تعملينه؟".

"أنا اعمل نادلة في بار قريب من هنا".

"حسن العمل لا خطيئة فيه.. إن الإنسان يعمل كي يوفر قوته.. أبونا آدم كان يعمل وكل الأنبياء حتى يسوع المسيح عمل نجارًا، لكن المشكلة هي في أن نستخدم أجسادنا وهي مقدسه جدًّا من أجل شيء يسمى العمل.. أجسادنا هياكل للروح القدس.. لهذا نود دائمًا أن نبقيها طاهرة إلا بالحلال نريد أن يبقى جسدنا لله وحده".

قالت وكأنني جرحتها بالكلام وأحرجتها: "ولكن هذا هو اللبس الرائج في البار أنه بار بحق الله.. ما الذي تريد من العاملين أن يرتدوا مثلا؟".

قلت لها: "وهل تتعرى الرجال هناك وأيضا أم فقط النساء العاملات؟".

سكتت.. لم تجب ففهمت وفهمت هي أنني على صواب، ثم قالت لي: "أتيت هنا لأنك وددت أن تكلمني وأنا أتيت لكنك لم تخبرني.. لمَ طلبت مني القدوم اليوم؟".

قلت باسما: "نعم، طلبتك للتحدث، لكني سأسمع فقط.. أنت من ستتحدثين، وتخبريني بكل شيء.. هناك شيء فيك يجعلني أريد الاستماع".

ضحكت.. كانت ضحكتها أشبه بتراتيل ملائكية.. لم أسمع من قبلها ضحكة كهذه.. كان كل وجهها مشعًا ينبض بالحياة.. عيناها تتلألأ مثل سماء ليلية مليئة بالنجوم وقالت: "ما الذي تريد سماعه من بائسة مثلي".

قلت: "كل شيء لدي الوقت كله لك".

"هل تريد أن اعترف لك بخطاياي مثلا".

"لا.. من قال إني هنا لأسمع اعترافاتك".

"لكن هذا ما يبدو لي".

"اعتبريتي إذن مثل سارة التي تتحدثين لها كصديق فقط".

قالت لي بحدة: "ومن قال إني أخبر سارة كل شيء لا أحد يستطيع أن يتخيل ما مررت به".

أجبتها: "إذن سأحاول أن أتخيل إذا سمحت لي".

لا أدري لماذا أريد أن أسمعها للمرأة هالة غريبة تسحرني فيها.. أريد أن أتعمق فيها كثيرا.. أن أدخل إلى دواخل عقلها وقلبها.. أريد أن أفهم تعاستها.. ولمَ هي بعيدة عن الله هكذا؟ كل منا قريب من الله بطريقة ما، لكن هي بعيده جدًّا.

سكتت هنيهة ثم قالت: "لا أدري لماذا أنا جالسة هنا من الأصل.. ولا أدري لماذا وافقت على القدوم من الأساس، لكن هناك شيئًا فيك يجعلني أثق أن أتكلم حتى لو لم تسالني.. فيك شيء لم أعهده في أي كاهن من قبل قلبي يرتاح لرؤيتك وعقلي مطمئن بجانبك".

ربت على يدها المنكمشة في حضنها وأنا أؤكد لها ما قلته قبل قليل وابتسمت.

رأيت في عينيها الابتسامة قبل شفتيها كنت أقسم أني أسمع دقات قلبها الواصلة إلى أذني بصوت عالٍ يفوق حتى أي صوت خارجي من حولنا.

قالت وهي تزيح نظرها إلى الأسفل وبدأت شفتاها بالتحرك حين قالت:

"لا أدري من أين أبدأ؛ فكل حياتي عبارة عن ألم وحزن وأسى منذ طفلة بضفائر صغيرة على جانبي رأسي كنت سعيدة، أو على الأقل هذا ما كنت أشعر به وأنا طفلة ذو ثماني سنوات، حتى نهضت ذات يوم على صراخ بين أبي وأمي كانت المشاجرات كثيرة بينهما في تلك الآونة. لم أخرج من غرفتي، وضعت وسادتي على أذني كما أوصتني أمي أن أفعل حين أسمع صوت شجار أو صوتًا عاليًا حتى لا أخاف.. أرتعب.. وعدت الدقائق أو الساعات.. لا أدري حينها.. لم أشعر بالوقت، فقط شعرت أن الوقت يمر طويلا بطيئًا، وبعدها توقف كل شيء عن الصراخ، هدوء سكون، لا شيء على الإطلاق.. رميت الوسادة بعيدًا.. انتعلت خفيَ وفتحت باب الغرفة لأخرج منها ذاهبة إلى أمي.. لكني وصلت و...".

لم تستطع كاترينا تكملة الحديث؛ ارتعش جسدها وبدأت بالبكاء. كانت عيناها كشلال لا يتوقف وتلك اللآلئ الثمينة تسقط الواحدة تلو الأخرى.

حاولت أن أهدئ من روعها وحزنها.. ذهلت وجلبت لها كأسًا من الماء وعدت.

قاطعه الأب توماس وسأل بفضول: "هل ما أفكر به صحيح؟ هل قتلت الأم على يد الأب؟".

أومأ الكاهن المريض برأسه وقال: "نعم.. لقد تفاجأت.. طفلة ذو عمر ثماني سنوات ببركة دم تحيط بجثة أمها المسكينة.. بعد أن طعنها الأب عده مرات وفر هاربًا، وبقيت كاترينا مثل المدهوشة لا تعرف ماذا تفعل، وانهارت الطفلة وخرجت تصرخ وتبكي حتى تجمع الجيران حولها.. اكتشفوا ما اكتشفوه، بعدها دخلت في صدمة نفسية لسنة كاملة وجروا والدها مقتولا أيضا بعدها.. ويرجح

أنه قتل على يد عصابة تتاجر بالممنوعات".

قال الأب توماس: "ثم ماذا حدث؟".

أجابه الكاهن الشيخ وقال: "وأنا سألت نفس السؤال".

ارتشفت من تلك الكأس وهدأت قليلا.. تنفست بعمق وقالت: "وبدأت رحلتي بالمعاناة، وتنقلي من مكان إلى آخر، كل عائلة تهتم بي لبعض الوقت حتى أصبحت فتاة ذات الثانية عشرة حين أوكلت إلي امرأة أربعينية مع زوجها وكان لديها فتاة أخرى.. كانت هذه هي العائلة الحاضنة.. في بداية الأمر كان كل شيء يسير بشكل روتيني.. كنت انطوائية جدًّا.. قليلة الكلام وكان زوج السيدة جورجيت رجلًا صعبًا منضبطًا جدًّا، وكاننا كنا نعيش في ثكنة عسكرية.. لأنه كان جنديًّا متقاعدًا وكان يطبق القوانين العسكرية في المنزل.. كنت أخافه جدًّا وأرتعب حين أسمع صوته لكن السيدة جورجيت كانت امرأة طيبه وما بيدها حيلة".

نظرت إليَّ وقالت: "لمَّا دائما النساء ضعيفات أمام الرجال.. لمَ لا يقفن بوجه الظلم؟".

أجبت وقلت: "إن النساء من أقوى المخلوقات التي خلقهن الرب، لكن لديهن قلوب ضعيفة طرية طيبة، لا يظهرن قوتهن إلا إذا لزم الأمر.. والكثير من الأمهات يتحملن كل شيء من أجل أطفالهن؛ هذه غريزة الأمومة".

عقدت حاجبيها امتعاضا وقالت: "لكن الأفضل أن يعيش الطفل بحالة نفسية وصحية جيدة بغياب أحد الوالدين أفضل من أن يعيش تعقيدات نفسية بوجود مشاكل مع كلا الوالدين".

كلامها أقنعني، لكن قوانين الكنيسة تحرم الطلاق رغم كثرته.. نحن خلقنا ذكرا وأنثى واحدا للآخر مدى العمر، لكن لكل قاعدة شواذ.. سألتها وقلت: "ثم ماذا حصل؟".

قالت: "هربت".

اندهشت بإجابتها: "هربت.. كيف؟ ولماذا؟".

"نعم هربت قبل عيد ميلادي الثامن عشر بعد أن كاد زوج جورجيت يعتدي علي وهو ثمل".

هنا أصابتني صاعقة، إلى متى ستظل هذه الطفلة داخلها تُعرَّض لخيبات أمل لا شك أنها ستعتقد أن الله تخلى عنها لأنها عانت كثيرًا.

أجبتها: "وأين هربت؟".

قالت: "خرجت من المنزل، وليس معي دولار واحد.. ركضت حتى ابتعدت ثم توقفت لأخذ أنفاسي، وبعدها مشيت كثيرًا حتى وجدتني فتاة وصديقها كانوا يسافرون بسيارتهم.. أوقفتهم وشرحت حالتي لهم.. أخبرتهم أني هربت من عصابة ما وأريد الابتعاد.. أخذوني معهم.. حتى وصلت هنا إلى هذه المدينة.. ومن ذلك الوقت وأنا هنا".

صمت.. لم أجبها.. ما الذي سأقوله لأخفف عنها؟ لا يوجد كلام، ولا كلمات.. ليس بيدي سوى أن أستمع لها.. أكملت قائلة: "صليت كثيرًا.. أتعلم؟ صليت حتى يساعدني الله، لكنه لم يسمعني، عشت مشردة لأشهر أنام على الطرقات وآكل ما يقدمون لي الناس من عطايا.. طرقت أبواب الكنائس لتستقبلني.. لكن كانوا يبقونني لساعات ثم يطلبون مني المغادرة.. إذا الكنيسة لم

تساعدني فمن سيساعدني؟".

أغمضت عيني وتنهدت، كيف يحدث هذا؟ سكت الكاهن العجوز.. أحس بالتعب من الحديث.. نهض الأب توماس لمساعدته هذه المرة بالجلوس وأعطاه دواءه الذي كان بجب أن يأخده فقال له الأب توماس: "لهذا افتتحت ملجأ المشردين هذا قبل سنوات، وفعلت المستحيل حتى يستوعب كل من لا سقف لهه، وكنت تتوسل وتترجى الغني والذي على اقتدار حتى يتبرعوا من أجل هذا المشروع.الآن فهمت إصرارك بالاعتناء بالأطفال خاصة بنفسك. وحبك لهم كان سببه ما مرت به كاترينا.. ما الذي يوجد؟ بعد بهذه الحكاية كيف هناك خطيئة تنسب لك؟ لقد كانت لك طريق وليس عثرة، صحيح أنا حزنت من أجلها لكن هناك أمورًا تحدث في الحياة غصب عنا وما من شيء بيدنا لنغيرها.. لكن الله أعطانا العقل لنفكر.. كانت تستطيع أن تذهب للشرطة وتبلغ عنه بدل هروبها ومرورها بكل ما حدث.

هز الكاهن الضعيف رأسه منافيًا لما قاله له توماس لكنه قال: "وماذا كانت ستفعل طفلة مثلها.. كل ما فكرت به بسبب الخوف هو الهرب، وبعدها وقعت بيدين من يستغلون ضعف الناس لأجل مصالحهم.. ما الذي ستفعله فتاة صغيرة بلا مرشد أو شخص يساعدها على العيش باحترام.. طفلة هي رغم سنينها الثماني عشرة. كثير منا يكون في أحضان أمهاتهم حتى لهذا العمر وهي تتجول في الشوارع جائعة أو متجمدة من البرد أو حتى مريضة لا أحد يهتم.. اعتقدت أن من طلبها للعمل أنقذها، لكن بالحقيقة أغرقها في شيء أكبر لوث براءتها وسلب عفتها.

"حسنًا". أجاب توماس وقال: "وماذا حدث بعدها؟".

أخبرتني حينها بعد أن سألتها أنت.. قلت لها: "ثم كيف أكملت حياتك وكيف وصلت لهذه الحالة الآن؟".

أجابتني وكأنها لا تبالي بما سألت وبما حدث وقالت: "كالقصص الكثيرة مثلي.. وجدني أحدهم وطرح عليَّ العمل عنده.. كان يقول أن شكلي مثل ممثلات هوليود.. أنفع للعمل معه أفضل من العيش في الشوارع.. ووافقت لم يكن بيدي شيء آخر.. عملت في ملهى ليلي راقصة، ثم بعد أن جذبت الشباب والرجال ترقيت لمرافقة.. كنت أربح الكثير من المال حتى جاء اليوم المشؤوم الذي وقعت فيه بحب أحدهم.. من أجل سام كنت مستعدة أن أضحي بأي شيء فقط من أجل أن أصبح حبيبته وأن يخرجني من هذا العالم من أجله.. كنت مستعدة أن أترك العمل وأبقى خادمة تحت قدميه من أجله.. جربت أن أتغير.. فعلت كل ما تفعله النساء حتى يمتلكن رجالهن لكن ما فعله بي كان أقسى من كل ما مررت به.

أحببته جدًّا.. كنت ثملة به من دون خمر.. كنت دائخة كأنه مرض أتعب روحي.. تلبست به مثلما يتلبس الشيطان بضحيته فكان ما يقوله قانون وما يطلبه أمر انجررت وراءه.. يوما بعد يوم ارتميت في أحضانه كأنني عذراء أولد من جديد.. كأنه أول من لمس جسدي ترتجف كل حواسي حين يهمس لي أو يتقرب مني.. كانت قبلاته دواء وكلماته مرهما لروحي.. أما لمساته فكانت مثل ماء بارد يطفئ نيراني.

أعلنت حبي له ذات ليلة أنا أتوسد صدره عاريين من كل شيء إلا أحاسيسنا؛ فأبعدني عنه بجفاء.. ارتجف قلبي له.. أحسست أنني بعدما قلت "أحبك".. سيكون الفراق جوابه.

سألته لما نهضت وأين ذاهب، فقال لي: "لدي عمل كنت قد نسيت أمره".

ورحل دون أن ينظر للخلف كما كان يفعل قبل تلك الكلمة ذات الأربعة أحرف التي دمرت كل شيء.

ولم أره في اليوم التالي ولا الذي بعد.. سألت عنه كل من كان من الممكن أن يعرفه؛ فقال بعضهم إنه سافر من أجل عمل، وبعضهم بقول إنه مشغول، لكنني كنت أتمزق من داخلي خشية أنه يهرب مني فتوجعت وأيقنت أنني انتهيت.. وبسبب عقلي المشغول به باستمرار.. تشاجرت مع أحد الزبائن ووصل بي الأمر بالطرد.. وطُرِدت بعد سنوات من العمل في ذاك الملهى الذي رأيت فيه أشكالًا وأنواعًا من الناس لا حصر لهم.. تركت العمل وبحثت عنه ولم أجده ثم كان يجب أن اجد عملا آخر كي ادفع فواتيري وأعيش كحالي من الناس فوجدت هذا البار الذي أعمل به الآن منذ ذلك الوقت".

سألتها باهتمام لأعرف تكملة القصة وقلت: "وهل رأيت سام من جديد أو مرة أخرى؟".

"نعم رأيته ويا ليتني ما كنت رأيته.. كنت سأعيش على أجمل ذكريات حياتي، لكنني كما أخبرتك كان هو صدمتي الكبرى.

رأيته وكان في مطعمٍ، بجانبه ولدٌ صغيرٌ. امرأة في قمة الجمال والأنوثة والأناقة.. وقفت من بعيد أراقبهم خلف إحدى النافذات الكبيرة للمطعم المطلة

على الشارع.. كنت أراه كم يبدو سعيدًا وكم كنت أتخيل نفسي أجلس بمكان تلك المرأة التي معه، كانت زوجته عرفت منه هذا لما التفت ورآني.. وجدني واقفة أبحلق فيهم، والدمعة في عيني.. خرج مسرعًا بعد أن وضع قبلة على خد زوجته كأنه يستأذن الخروج.

جاءني.. أمسكني من ذراعي وجرني خلفه اوقفني عند زاوية بعيدة عن الأنظار وقال: "ما الذي تفعلينه هنا؟ كيف وجدتني؟ تكلمي.. هل تراقبينني؟".

أسئلة كثيرة يسألها بلهجة متوترة.. ينظر يمينًا ويسارًا لا يريد أن يرانا أحد.. أجبته وقلت: "لقد اختفيت من دون ولا كلمة.. بحثت عنك كثيرا حتى يأست.. ألم تفكر بي قط؟ حتى وجدتك هنا تجلس براحة مستمتعا بصحبة امرأة أخرى".

أمسك بذراعي وجرني إليه ومن عيبه تتطاير شرار نار غضبه.. قال: "تلك زوجتي مع ابني".

لا أدري لمَ لم أندهش.. وكأني قد توقعت هذا.. كان قلبي قد تصلب.. لو كانت أي واحدة أخرى مكاني لدخلت بحالة من الهستيريا، لكنني بسبب ما وقع بي يبدو أني لم أتاثر ولم تكن هذه صدمتي، لكن كانت صدمتني الحقيقية حين سألته: "لمَ لم تخبرني وخاصة بعد أن أخبرتك أني أحبك؟".

أجابني قائلا: "هههههه.. هل تريدين مني أن أحب عاهرة.. لم تكوني سوى جسد جميل أعجبني فاختبرته.. لم تكوني بالنسبة إلي سوى تجربة أفرغت فيها بعض من طاقتي مثل لعبة جديدة.. تكون ممتعة لعدة أيَّام ثم يمل منها، وأنا

مللت منك، وتركتك.. لا تفكري أنك كنت ضحية هذا كان جزءًا من عملك حتى قبل أن تعرفيني.. أليس كذلك؟".

صفعته فقط.. بصقت في وجهه وابتعدت بكل قوتي ولم أنظر إلى الخلف. بكيت كثيرًا تلك الليلة.. كثيرًا جدًّا. والآن أسألك.. أين الله من كل هذا؟".

لأول مرة لم أستطع أن أجيب.. لأول مرة أيها الأب توماس أرى أن السكوت هو أفضل من الكلام. لا أدري كيف سأدافع عن الله أمام معاناة هذه المرأة.

أجاب توماس وقال: "هناك من عاش أكثر ظلما ومأساة.. هناك الكثير مثلها أسوأ منها".

"صحيح، لكننا لا نعرف بوجودهم إلا إذا قابلنا نموذجا، وكانت كاترينا نموذجًا فتح عيني على الكثير من الأمور".

حسنًا يا أبتي ما الذي فعلته بعد كل الذي سمعته منها؟ وكيف آلت الأمور بعدها؟".

أجاب قائلا: بعدها ارتمت على كتفي، وبكت قليلا.. شعرت أن قلبي قفز من بين أضلعي وبدا ينبض بسرعة أكثر.. ابتعد عني، ورفعت رأسها كم تمنيت وقتها أن تبقى هكذا كل عمري، ثم صليت من أجلها وأوصيتها أن تأتي الأحد القادم إلى الكنيسة لتسمع العظة ووافقت مسرورة، وقبل أن تخرج من الكنيسة قالت لي: "لم أشعر بنفسي خفيفة قط.. إلى هذا الحد.. شكرا لأنك استمعت". أجبت: "بل شكرًا لأنك فتحت قلبك لي وأنا آسف جدًّا لكل ما مررت به، لكن لكل حدث وقعت به كان هناك أمر خلفه". قالت متسائلة: "كيف؟".

"حمتك أمك بحياتها حتى وإن كانت طريقتها خاطئة ساعدتك جورجيت بالعيش تحت سقف بيتها بالرغم من زوجها المجرم.. اطلعت الحياة على كذب سام حتى لا تستمري بالعيش في الخداع، وبالرغم من هذا كله أخرج لكِ سارة لتكون صديقتك ولتهتم بما أنت عليه.. هناك دائما شيء جيد في الشر الذي حولنا، ويجب أن نكون شاكرين له.. صدقيني الله لا يستغني عن أولاده.. فقط يريد أن يعرف إلى أي مدى يصل الإنسان في إيمانه به أو في الابتعاد عنه، وفي كلتا الحالتين يكون دائما معه".

ابتسمت وأجابت قائلة: "أراك الأحد المقبل يا أبت". وخرجت ولكنها خطفت مني شيئًا معها، وطوال ذلك الأسبوع كنت أفكر فيها وأعد الأيام حتى يأتي الأحد وأراها.. لم أفكر قط أن ما أفعله خاطئ أو ما أشعر به تجاهها، ويجعلني أندم طوال حياتي.

اتكأ توماس على الكرسي وهذه المرة لم يعلق بشيء.. فهمت بالضبط ماذا من الممكن أنه قد حدث بين كاهن وامرأة خاطئة كهذه.

كانت تلك النظرة التي على وجهه كفيلة بأن يقول له الأب افرايم هذا: "هل تفكر أني وقعت بحبها.. أليس كذلك؟ لأخبرك إذن.. لقد كانت العين التي رأيت العالم به من خلالها.. لقد كانت الحب الذي تملك في قلبي وارآني العالم الحقيقي.. لقد كانت امرأة خاطئة من الخارج، لكن طاهرة من الداخل مثل تلك الخاطئة التي بللت قدمي يسوع بدموع ندمها، وغفر لها خطاياها لأنها ندمت من كل قلبها، وليس ندما شفويا.

أجابه توماس وقال: "نحن البشر ضعفاء وإبليس يجربنا دائما.. ليس خطأك أن جربك إبليس بل الخطأ لو بقينا على نفس الخطاء ونحن نعرف أنه خطأ، لكن السوال هو هل أتت إلى القداس يوم الأحد؟".

"نعم، لقد أتت وكانت تمتلئ بالنور، وكأن الكنيسة كانت قد أصبحت أكثر ضياءً بسببها. ترتدي ملابس محتشمة، وعلى رأسها شال يغطي شعرها، وجلست في نفس المكان حتى انتهاء القداس، ثم تكررت الزيارات وحضورها القداس وأصبحت أبحث أن وجهها بين المتعبدين، وبدأت تشترك بالأعمال التطوعية واهتمت بالكنيسة ونظافتها.. اهتمت بالأطفال في مدارس الأحد.. كانت في بعض الأحيان تحضر الطعام وتجلبه لكل العاملين بالكنيسة كما سمحت لها الفرصة بالقدوم.. وزاد قربنا، حتى إنها تركت عملها في ذاك الملهى واشتغلت في مطعم محترم بأجر بسيط يكفيها يومها.. تغير حالها وأصبحت أكثر إشراقا عادت ابتسامتها إلى وجهها.. مرت سنة كاملة، وفي هذه السنة تغير الكثير.. جئت ذات يوم إلى مطبخ الكنيسة أردت أن أعمل لنفسي كوبًا من القهوة كان لدي بحث مهم أقوم بمراجعته؛ فلما دخلت وجدتها هناك.. تلقتني بابتسامة وقالت: "هل تحتاج لشيء أيها الأب افرايم؟". قلت: "هل ما زلت هنا؟ اعتقدت أنك ذهبت بعد أن انتهى القداس". قالت: "ذهبت.. وعدت مسرعة نسيت أن آخذ حلة المطبخ.. إنني جلبت بها طعاما لبواب الكنيسة البارحة وسأعود للعمل هل تريد شيئًا قبل أن أذهب". أجبت: "كلا، كنت سأعد القهوة.. هل أعدها لك؟". أجبت وانا أمد يدي على آلة القهوة فتمد يدها هي أيضا.. تتلامس كفانا وجسدانا قريبان من بعضه جدًّا.. أنفاسها الحارقة المعطرة كادت تحرقني بنار لا

تنطفئ.. لا أدري كيف تملكت نفسي ولم أقبلها.. ابتعدنا نحن الاثنين عن بعضنا بسرعة كأننا صعقنا بسلك كهربائي.. جرت شحنة في جسدينا.. أطرقت رأسها وخرجت بسرعة.. أما أنا فاكتشفت لتوي أني كنت على وشك أن أخون الكنيسة.. وألوث كهنوتي.

تركت كل شيء في المطبخ وعدت أذرف دموع الندم في غرفتي، وبقيت ذلك النهار، والليل كله أصلي بندم ليسامحني الله لأني كسرت شريعته ونذوري الكهنوتية بعدم الانجراف خلف أي شيء دنيوي.. وأنا كنت قد عشقت امرأة ولم أكن أدري.

نهض الأب افرايم ليذهب إلى الحمام بمساعدة توماس حتى انتهى مما كان يفعله وعاد إلى غرفته.. طلب منه توماس أن يرتاح ويكمل فيما بعد لكنه أبى ذلك وطلب منه أن يكمل اعترافه عاد واستلقى على السرير وأكمل قائلا: "لقد كررت فعل الندامة أكثر من مئة مرة طوال الليل وكنت أقول "يا ربّي وإلهي، أنا نادم من كل قلبي، على جميع خطاياي، لأني بالخطيئة خسرت نفسي والخيرات الأبدية، واستحققت العذابات الجهنمية. وبالأكثَر أنا نادم، لأنّي أغظتك وأهنتك، أنت يا ربّي وإلهي المستحق كل كرامة ومحبة. ولِهذا السَبَب أبغض الخطيئة فوق كل شرّ. وأُريد بنعمتك أن أموت، قبل أن أُغيظك فيما بعد. وأقصد أن أهرب من كل سبب خطيئة. وأن أفي، بقَدر استطاعتي، عن الخطايا التي فعلتها. آمين". نظرت إلى صورة السيد المسيح المصلوب وكانه كان يقول لي بعد أن سفكت دمي لأجل خطاياكم تعودون وتخطئون وفي كل مرة أسامحكم لأني حبي عزيم ومغفرتي بلا حدود.. وقلت صلاة كنت حفظتها منذ كنت صغيرًا

أتردد على الكنيسة كشماس بدا حياته الكهنوتية توا.

يا إلهي، إنّي أُحبّك فوق كلّ شيء، وأنا أكره، وأمقتُ من صميم روحي، الخطايا التي أغظتُك بها، لأنها كانت غير مرضيّة في نظرك، لأنّك أنت الصلاح الفائق، والمُستحق لكلّ محبّة. وأُقر أنّه يجب عليَّ أن أُحبّك محبّة تفوق محبّتي لأي إنسان آخر، وإنّه يجب عليّ أن أُثبِّتَ محبتي هذه لك. وعندما يُفكّر عقلي بكَ، فإنني أرى عظمتك اللا محدودة، الأعظم من كلّ شيء في هذا العالم، مهما كان غالياً أو جميلاً، ولذلك، فإنّني مُصمم بحزم وبطريقةٍ لا رجعة فيها، أن لا أُغيظك أبدًا. وألاّ أعمل شيئًا يغضب صلاحك الكامل، أو يعرّضني لخطر السقوط من نعمتك المقدسة، الّتي أنا مُصمم كل التصميم على أن أواظب عليها حتى النفس الأخير في حياتي... آمين.

صليت كثيرا حتى فقدت الوعي ولم أدرِ كم كانت الساعة وأنا لم أخرج من غرفتي ذاك اليوم حتى وجدني أحد الشمامسة وانا ملقى على الأرض شاحب اللون، وتم نقلي إلى المشفى.

بقيت هناك يومين ثم خرجت بعدما أصررت كثيرا أن لا يبقونني.. في تلك المشفى أحسست أني أختنق مثل سمكة تلتقط أنفاسها الأخيرة وهي خارج الماء. تم إخراجي فعلا ووجدت كل من قد لمستهم بطريقة أو بأخرى معظم أفراد رعيتي في الكنيسة.. تتوسطهن كاترينا بتلك الابتسامة الملائكية على وجهها سلموا عليَّ كلهم وأنا ما كنت أسترجي أن أنظر في عيني أي أحد منهم ظنا مني أنهم سيرون الخطيئة التي اقترفتها من خلال عيني.. كنت فقط أريد العودة إلى مخدعي لأكمل ندمي غير المحدود الذي لا يزال محفورًا في داخلي إلى حد الآن..

وحان الوقت كي أزيحه عن كاهلي قبل موتي لأن الله أعطاني الفرصة كي أحقق هذا الاعتراف في النهاية...".

قاطعه توماس وقال: "وما فعلت كاترينا بعدها؟ هل حاولت التقرب منك أم ابتعدت وماذا فعلت أنت يبدو من وجودك في الدير كل هذه السنوات أنك حبست نفسك فيه.. أليس كذلك؟".

ابتسم الأب افرايم لأن توماس فهم الحكاية كما هي.. قال مجيبا: "بعد أن خرجت من المشفى، أقمت أول قداس وكان الحضور كبيرًا، كما أنهم وزعوا الحلوى بعد الصلاة بمناسبة عودتي وكل هذا كان فكرة من أفكار كاترينا التي بدأت تتغلغل يداها في كل مكان، وأصبحت علاقتها مع الكنيسة والرعية جيدة جدًّا.. انتهى كل شيء وبينما هي تستجدي مني النظرات أنا كنت أهرب منها.. أو أنني كنت أهرب من نفسي وبنفسي حتى لا أقوم بفعل أخطاء أكبر.. الشيطان يا ولدي يعرف بالضبط ما نقطة ضعفك ويحاربك فيها، وعلى ما يبدو.. كانت تلك المرأة نقطة ضعفي.. لقد غفرت لها خطاياها بحلة من الروح القدس المعطى إلينا من الله أن نغفر للناس زلاتهم وخطاياهم على الأرض شرط أن لا يعودوا لها.. فيغفر الله في السماء.. فماذا نكون نحن إذا لم نغفر.. لقد غفر المسيح للخطاة وحتى لمن صلبوه فيكفي أننا نتشبه بالمسيح في حياتنا.. كنت واثقة منها أنها تطهرت من آثامها، لكني لم أكن واثقًا من نفسي. أتتني بعد أن رحل الجميع.. أمسكت بيدي لتقبلها مثل الأطفال لكن سحبتها بسرعة من بيت يديها.. قالت مبتسمة بحنان: "كنت خائفه جدًّا عليك يا أبت.. ما الذي حدث لك؟ لم أرك منذ وقت طويل". أطرقت رأسي إلى الأسفل وقلت: "كان لدي عمل.. وأشكرك

للسؤال.. يجب أن أذهب.. اسمحي لي".

قالت وهي تمسك بذراعي حتى لا أبتعد: "أريد أن أعترف.. هل تسمح؟". قالت بتوسل.

"الآن؟". أجبت وأنا لا أريد أن يطول لقاؤنا.

"نعم، أرجوك.. يجب أن أعترف.. أحتاج للاعتراف الآن".

"لكنني حللتك من كل خطاياك منذ مدة..هل أخطأت مجددا".

قالت: "أنا سأعترف لك، وأنت لك السلطان أن تعرف هل ما فعلته خطأ أم لا".

تبعتني إلى زاوية الاعتراف جلست أنا وجلست هي يفصلنا جدار من الخشب مزخرف بلوحة ليسوع وهو يركع على الصخرة في جبل الزيتون.. يصلي للأب قبل ما يمسك به الرومان بمساعدة يهوذا وكبار اليهود.. أسمعتني صلاة الاعتراف ثم رسمت علامه الصليب وهي أيضا.. صلينا مع بعض الصلاة الربانية قلت لها بعد أن انتهينا: "تفضلي يا سيدة اعترفي لما ترين قوله والله سيغفر لك أخطاءك بتعهد أن لا تعودي إليها مجددا". قالت: "لقد أحببت.. أحببت رجلا لا أستطيع الوصول إليه ولا يستطيع الوصول إليَّ.. أحببت رجلا وأنا واثقة ومصدقة أنه أفضل شيء حدث لي.. أحبني وتقبلني كما أنا بكل عيوبي قبل محاسني.. أليس هو هذا الحب؟ أن تحب السيئات قبل الحسنات أن تعشق الجوهر الذي في الداخل أكثر من القشره الخارجية، لكنه لا يستطيع أن يمر يده لي وانا أعذره لأنه لو تقدم إلي خطوة واحدة سيخطئ في حق نفسه وأنا لا أريد أن يخطئ ولا أستطيع أن أمد له غير روحي فقط، ولأني أحبه سأترك قلبي يحبه من بعيد

فقط، والآن أيها الكاهن هل حبي له خطيئة أم حبه لي خطيئة؟".

كنت مغمض العينين طوال الوقت وهي تتحدث حتى لامست كلماتها قلبي ولم أستطع أن أناقشها بأي مما قالت، ولكني أجبتها وقلت: "لم يكن الحب خطيئة؛ فالله أحبنا أولا لكن لو كان من تحبين أكثر من الله، حينها يكون الحب خاطئًا لأن أول وصايا الله هي أحبب الرب الهك من كل قلبك".

قالت: "إذن لتحلني يا أبتي لاني سمعت الجواب الذي أبحث عنه".

لقد فهمت جيدا أنني لن أتخلى عن ربي من أجلها، لكن حبها ملء مكان صغير لم يسكنه أحد من قبل.. حللتها واضعا يدي على رأسها، ولم أرها منذ ذلك اليوم لأني طلبت الانتقال للدير وسافرت بعد أسبوع دون أن أودع أحد، لكن بعد ثلاث سنين رأيت أحد أولاد الرعية، كان يزور الدير هنا.. وتحدث معي عن الكنيسة من بعد أن سافرت كما ذكرها في كلامها كانت قد فتحت بيتها للأطفال المشردين ولما زاد صيتها أعانتها الحكومة، ولقت مكانًا أفضل وأكبر وأصبحت أمًّا للعديد من الأطفال.. كنت فخورا جدًّا بها.. حمدت الله من قلبي أنه أظهر لها نفسه في هولاء الأطفال.. واستقر في قلبها الحب".

سكت الأب افرايم وعلى وجهه ابتسامة هادئة.. تذكر للتو تلك الإنسانة التي علمته الحب، رافعا عينيه إلى السماوات، ثم قال وكأنه يحدث الله: "إنني ملكك إلى الأبد.. قلبي لك، وحبي لك، كلي لك، ولكن لتكن الذكريات لي".

كان الأب توماس يشعر بشيء غريب كأنه شاهد للتو قصة كفاح رجل بتول.. لم يمس جسده أي تشوه بفعل الرغبة ولكن امتلأ قلبه بحب كبير.. تعلم للتو أن الحب يمكن أن يفعل المعجزات حقا..

قال له: "هل أعطيك الحلة الآن".

اوما الأب افرايم برأسه موافقا؛ فنهض الكاهن الصغير وصلى وناوله القربان، وانتهى من صلاته.. اتكأ الأب الشيخ مستلقيا على سريره ينتظر ساعته ولكن أوصى تلميذه وقال: لا تغلق باب الكنيسة، أو قلبك لأي إنسان كأن

لم تمر ساعات حتى أسلم الروح لخالقها، وذهبت روحه إلى السماء إلى من ملكه طوال حياته.

*****

# القصة الخامسة.

# سارقة القلب.

تضع نظاراتها السوداء على عينيها.. تأخذ حقيبتها من الدرج تضعها على كتفها وتتجه إلى باب المنزل قبل أن تخرج تنادي أمها لآخر مرة وتقول: "إني خارجة يا أمي هل تريدين شيئا من الخارج".

تجيب الأم وفي يديها بقايا العجين: "لا يا حبيبتي انتبهي لنفسك فقط".

ابتسمت لميس وأغلقت الباب خلفها وخرجت.. نزلت درجتين على مهل وبدأت بحذر المشي في الشارع، مكان عملها ليس ببعيد تمر من أمام محل بقالة الخالة سميحة تتوقف لثوان.. تلقي التحية عليها ثم تكمل طريقها، وقبل أن تصل إلى مكان وجهتها يوميا تتوقف لتشتري من العم يعقوب طعامًا للطيور لأنها قبل أن تصل تطعم الطيور في الساحة القريبة من مكان عملها فتجلس على مصطبة خشبية، وتبدأ بنثر الحبوب لتتجمع الطيور والحمام بأشكالها وتلتهم تلك الوجبة التي تقدمها لهم لميس يوميا.

كانت سعادتها في سماع أصوات تلك الطيور حولها أو ضحكات الأطفال حين يمرون مع آبائهم بالقرب منها.. تحزن كثيرا إذا سمعت طفلًا يبكي من بينهم.

الكل في حيهم يعرفونها ويودون قربها والتحدث معها؛ فهي طيبة القلب جدًّا شفافة الروح ذات ابتسامة حنونة.

واليوم أيضا تكرر نفس الخطوات فتجلس على المصطبة.. تضع حقيبتها بالقرب منها وتفتح كيس الحبوب لتبدأ بإطعامهم لم تمر ثواني حتى أحست بأن أحدًا ينتشل شيئا من جانبها.. تضع يدها مكان ما وضعت الحقيبة، ولم تجدها تمسك بعصاها لتنهض، ولكن أين ستلحق به وكيف ستلحق به وهي ضريرة لا ترى؟

يلتفت السارق برأسه ليرى إذا كان هناك من يتبعه بعد سرقته لحقيبة الفتاة، لكنه يتوقف فجأة؛ لقد سرق للتو أجمل فتاة عمياء يراها في حياته.

تندم فورا؛ ما كان يعرف أنها عمياء.. ما كان يبين عليها قط.. التفت يمينا ويسارا ليتأكد أن ما من أحد يراه أو رآه حين انتشل الحقيبة منها. تقدم نحوها بخطوات ندم وشفقة وحين أحست بوجود شخص ما بقربها قالت بخوف كبير: "أرجوك ساعدني، سرق أحدهم حقيبتي.. ليس فيها الكثير من المال، لكن هناك ما هو أغلى".

كانت تفاصيل وجهه تؤكد حزنه أكثر.. أمسك بيدها وقال: "لقد أتيت حاملًا حقيبتك". أمسكت بالسارق وأعدتها لك

أخذتها من يده تتفحصها، عادت لتقول بغضب: "هل أمسكت به؟ يجب أن نتصل بالشرطة حتى نلقنه الدرس لا يكررها مع شخص آخر".

قال السارق وعلامات الخجل على وجهه: "لقد هرب أعتذر حقا بالنيابة عنه".

أجابت: "لما تعتذر أنت بالعكس يجب أن أشكرك، لكني غاضبة، ماذا لو كان في الحقيقة دواء.. ماذا لو كان هناك آخر قطعة للنقود لأحد يشتري طعامًا لأولاده الجياع مثلًا، أو ليدفع بها قسط مدرسة أو بيت؟".

أجاب مطأطأ الرأس وقال: "صحيح، معك حق، والآن هل تسمحين لي بأن أساعدك لأخذك إلى أي مكان تريدين".

هدأت لميس قليلا وقالت: "لا أدري، لست بعيدة أصلا، لكن لم أعد أطمئن بالذهاب وحدي.. حسن تعال ولأضيفك قهوة.. ما رأيك؟".

ابتسم الشاب وقال: "قهوة، بالطبع؛ هذا جيد".

ثم توقفت لحظة استدارت إليه كأنها تراه لكنها بالحقيقة تسمع أنفاسه بالقرب منها وقالت: "لم تقل لي اسمك".

أجاب وهو سارح بعيونها السماويتين وقال: "اسمي شريف".

"سررت بالتعرف إليك يا شريف".. أجابت مبتسمة: "وأنا لميس".

وضعت الجميلة ذات العيون الجامدة الحقيبة على كتفها، فتحت عصاتها وتلمست الأرض، يمشي بجانبها شريف لتأخذه معها إلى محل عملها، ويذهب معها ليحميها من أي سارق قد يعترض طريقها. ولكن في قرارة نفسه كان يحميها منه أو كان يحاول أن يكفر عن ذنب لا يعلم هل سيغفر له أم لا.

وصلا إلى المكان الذي يقال عنه محل عملها.. كان هناك صبي يقارب السادسة عشرة من عمره ويبدو أنه الشخص الوحيد الذي يعمل معها يرتدي جينزًا أزرق ببلوزة سوداء فوقه.. نظر إلي بتوجس كأنه الحارس الشخصي للميس.. وقف أمامنا.. أخذ من يدها الحقيبة.. قال: "معلمتي.. لميس لقد

تأخرت.. ومن هذا؟".

ابتسمت لميس وقالت: "أولا ليس من الأدب أن نتحدث هكذا أمام الضيوف أيًّا كان زبائن أو مارة عاديين. وثانيا كاد شخص ما يسرق حقيبتي والأستاذ شريف هنا أعادها لي".

أومأ الصبي برأسه خجلا، ثم قال شريف: "هل تعملين هنا؟".

أجابت: "نعم.. هل أعجبك المكان؟".

أدرت رأسي يمينا يسارا.. كان المكان عبارة عن محل لصنع الفخار بكل أشكاله؛ تماثيل وأوعية أواني الزينة كالمزهريات وبعض التحف المصنوعة باليد.

كانت الرفوف مملوءة بتلك الأعمال التي يبدو أنها أخذت ساعات طويلة حتى اكتملت.. قلت معقبًا: "هل صنعت كل هذا بنفسك؟ هذا رائع".

أجابت لميس: "نعم.. لكن لم أفعله وحدي.. كان جميلًا يساعدني في كل شيء.. أليس كذلك يا جميل؟".

تقربت لميس منه واحتضنته.. كان الصبي مغرورًا بعض الشيء جميلًا.. وشكله جميل أيضا أجابها وقال: "لأنك معلمة جيدة.. والآن يجب أن آخذ طلبية السيد نهاد وأعود سريعا".

قالت لميس وهي تحاول ربط مئزرها حول خصرها: "حسنًا.. هيا استعجل وخذ حذرك.. لا تقود بسرعة.. هل فهمت؟".

أجابها كما كانت تريد أن تسمع وخرج.. تركنا نحن الاثنين وحدنا.. عدت.. التفت حولي.. كيف لفتاة فاقدة للبصر أن تصنع كل هذا الجمال بأيديها.

قلت: "يبدو أنني أكملت مهمتي وأوصلتك.. سأتركك لعملك يجب أن أرحل".

نظرت باتجاهي لكن عينيها لم تصوبا نحوي.. بدا على وجهها ذلك الهدوء والنقاء الذي لم أبصره قط ما حييت.

كم رأيت وجوها جميلة، لكنني لم أجد وجها عذبًا كوجه لميس، حتى عيناها المطفأتان تنيران بنور رباني مخالف للطبيعة غير معروف.

قالت لي بصوتها المهذب الناعم الرقيق: "أشكرك جدًّا يا شريف، لم أكن أعلم ما الذي كنت سأفعله لو لم تكن موجودا في ذلك المكان".

اعتصر الألم قلبي. لكنني لم أكن شجاعا كافيا لأعترف لها.. كيف سأعترف لها وأنا للتو قابلت كائنًا ملائكيا حييتها وخرجت، عدت إلى المكان الذي أدعوه بيتي أتقاسمه مع صديقين لي ولدنا وتربينا في الشوارع لا أذكر إلا أننا التقينا في نفس المكان والزمان ومنذ ذلك الوقت لم نفترق. عدت إلى المنزل ذلك اليوم مبكرا جدًّا لا يوجد في جيبي ولا قطعة نقود تذكر.

نهض ليرى إذا كان هناك طعام يؤكل في المطبخ.. لم يجد سوى بقايا من طعام البارحة. لم يشتهِ.. عاد إلى مكانه واتكأ وهو يفكر بما حل به صباحا.

أغمض عينيه وما إن أغمضهما حتى تراءى وجه لميس أمامه بعينيها التائهتين ذات النظرة الغريبة.. أحس بأنه يختنق لم يستطع البقاء في المنزل. يجب أن يشتت تفكيره بأمر ما.

خرج باحثا عن ضحية أخرى من أجل أن يسترزق بها كما كان يفكر وكما كان يعيش.. وكلما تقرب من أحدهم وكاد يسرقه تردد آخر لحظة هو يستذكر

كلمات لميس والموقف الذي حصل بينهما.

ساعات وهو يتجول دون أن يتحصل على قرش واحد عاد، كما خرج مرة أخرى لكنه وجد بانتظاره أحمد ومصطفى، استقبلاه كعادتهما، لكنه لم يكن في مزاج للمزح قط لمسته تلك الفتاة العمياء بلمسة غريبة كأنها فتحت عينيه على أمور كان يجهلها أو يتجاهلها من أجل البقاء على قيد الحياة.

كان الصديقان يتطلعان في بعضهما، ثم ينقلان نظراتهما إليه فيعبسان ولا يدريان ما أمره، لكن مصطفى أخذ سندويشه كان قد وضع فيها بعض الجبن. وكان أحمد قد أعد الشاي، صب له كوبا وقسما له المقسوم فقال مصطفى مقاطعا شرود شريف: "أخي. ماذا بك؟ لا تبدو على ما يرام".

أجابه شريف: "لا شيء، فقط لم أعد بأي مال اليوم لم تسمح لي الظروف اليوم".

ربت مصطفى على كتفه وقال: "لا يهم.. فأنا وضعت يدي على محفظة كانت مليئة، سأذهب لأشتري كل شيء.. أملأ الثلاجة.. سيكفينا الطعام لأسبوع كامل.

لم يجبه شريف.. اومأ برأسه.. أخذ منه كوب الشاي وشربه لعل الشاي يهدئ الإعصار الذي ضرب رأسه.. كان يتحرك ذهابا إيابا في الغرفة الصغيرة التي هي مكان جلوسهم ونومهم.. أوقفه أحمد متسائلا وقال: "هل لك أن تخبرني ماذا بك.. لماذا أنت متوتر وشارد ما الذي تفكر به؟".

تطلع إليه شريف كأخ كبير له يحبهم وبحنو عليهم وقال: "لا أدري، لكن هناك أمرًا يتآكل في صدري، يحفر في داخلي ويضيق عليَّ تنفسي".

أجابه أحمد وقال: "هل آخذك للمستوصف.. هل يراك طبيب؟".

أجابه شريف وقال: "الأمر الذي حل بي.. لن يشفيه دواء ولن يشخصه طبيب.. الأمر الذي حل بي لن يستطيع أحد فهمه".

ترك صديقه وعاد ليخرج إلى الشارع كأن أنفاسه أطبقت عليه وهو في المنزل، وبدأ يمشي دون وجهة، حتى أخذته قدماه أمام محل لميس.

يقف هناك يطالعها من بعيد يخطو إلى الأمام خطوة؛ فيعيده عقله مرة أخرى إلى الخلف لم يتجرأ قط أن يذهب ويكلمها. بقي هناك ينتظر حتى حل المساء وقبل أن تغرب الشمس كانت لميس قد أغلقت محلها عائدة إلى المنزل وهو يتبعها من بعيد.

لا يدري لما يتبعها فقط هناك شيء في داخله لا يدعه يبتعد عنها ولا يجعله يتقرب منها. كأنه يقف بعقده في الوسط يجرانه اثنان وهو يتمزق بينهما.

*****

يومان وثلاثة وهو على هذا الحال؛ يخرج صباحا ينتظرها فيتبعها حتى تصل لا يبارح مكانه أبدا حتى المساء ويكرر ما فعله في اليوم السابق، وقبل أن تصل إلى الشارع الذي تلتفت إليه لتدخل حارتها. تقف فجأة في منتصف الطريق وتستدير مباغتة إياه.. ترفع عصاها أمامه وتقول: "لمَ تلحقني يا شريف؟".

صدم هو بل دهش؛ كيف عرفته هذا السؤال الأهم؟ قال لها: "ومن أين عرفت أنني أنا هو".

قالت ضاحكة: "من جميل.. طبعا من سيكون غيره رآك.. تحوم حولي وحول المحل.. ما الذي تريده يا شريف".

تقدم منها خطوتين وقال: "أريد أن أعرفك أكثر".

رفعت حاجبيها ولوت شفتها، أجابته: "ولماذا؟".

قال: لا أدري.. أنت لا تخرجين من رأسي كل هذه الأيام، ولم تكن لي الشجاعة أن أتقرب منك. أما بعد أن كشفت أمري هل تقبلين دعوتي لك؟".

استدارت وعادت لتكمل سيرها عائدة إلى المنزل وهو يتبعها ويكرر عليها نفس السؤال حتى وصلت إلى منزلها، صعدت أول درج والتفتت إليه قائلة: "حسنًا.. بشرط؛ أنا أختار المكان".

وافق سعيدا بما قالته وأكملت: "قابلني هنا غدا كما تفعل، وسنقضي اليوم كله في المحل، أعلمك كيف تصنع مزهرية".

صفق بيده وكأنه ربح جولة صعبة كانت مستعصية عليه أو هذا ما كان يشعر به، ووعدها أنه سيكون هناك بالوقت المحدد.

فتحت الباب. ودخلت، أما هو فكاد يرقص في وسط الشارع فرحا.. عاد إلى المنزل، كان صديقاه بانتظاره. وهما عازمين على التحدث معه لكي يعرفا ماذا يخبئ عنهما وما هو الذي قلب أحواله هكذا؛ فهو دائم السرحان. يخرج صباحا ولا يعود إلا في المساء ولم يدخل قرشا إلى البيت.

اعتقدوا أول الأمر أنه مريض، ويخفي عنهم، لكنهم بعد التفكير استبعدوا هذا الأمر، ثم توقع مصطفى أن أمرًا أهم بكثير من المرض ألم به حتى يتغير هكذا.

جلس شريف في الصالة وتجمع حوله صديقه؛ واحد عن يساره والآخر عن يمينه، وسألاه: "ألن تخبرنا ماذا بك يا أخي، أحوالك لا تعجبنا".

رد شريف بابتسامة بلهاء وقال: "أعتقد أني وقعت بالحب".

ما إن انتهى شريف من جملته حتى دخل الصديقين في نوبة ضحك هستيرية. وكان يضحك شريف معهم أيضا، حتى هدأوا بعد دقائق، فقال مصطفى: "كيف يعني وقعت بالحب؟ هل الحب الذي نعرفه؟ يعني فتاة وما شابه ذلك؟".

هز شريف رأسه بنعم وقال: "إنها ملاك وليس فتاة، بل حورية سقطت من الجنة".

علق أحمد عليه بسخرية وقال: "وهل سيكافئنا الله بحورية؟ نحن الذاهبين إلى جهنم بمعاصينا.. يقول حورية هل سمعت؟".

اختفت الابتسامة من وجه شريف حين ضربه أحمد بالحقائق على وجهه، الحقيقة التي إذا كانت تدل فهي تدل على أنه سارق ينشل من الناس النقود ليشبع جوعه، ويدفع ثمن الحائط والسقف الذي يأويه هو وإخوته الصغار "أصدقاءه".

انتبه مصطفى على ما قاله أحمد وعلي.. تغير وجه شريف وحاول أن يغير الموضوع لكن لم يعرف كيف، فقال شريف: "معك حق يا أحمد.. يبدو أني نسيت من أنا وكيف أعيش.. لكن هل يعني هذا أن ليس لنا الحق في أن نحِب ونُحَب. هل ولدنا وحيدين لنموت وحيدين أيضا؟".

حزن أحمد كثيرا على ما قاله شريف وشعر مصطفى بالمر الذي في فمه وقال: "معك حق يا أخي. ألا نستحق نحن الحب أيضا مثل غيرنا، لكن لو سألتك ما الذي تعمله ماذا ستجيب؟".

قال شريف: "لا أدري، ربما أعمال حرة".

أجاب أحمد وقال: "صحيح.. أعمال حره، فكرة جيدة".

قال مصطفى: "كان الأحكم بينهما".

"ثم ماذا لو أحبتك أيضا؟ وطلبتك بعلاقة حقيقية ما الذي سنفعله وكيف ستتصرف. هذا الأمر لن يجدي نفعا بالكذب".

"أنا لا أكذب، أنا أحاول أن أتقرب منها وبعدها سأفكر بأمر ما". قال شريف بجدية. ليقاطعه أحمد ويقول:

"يعني هل ستبحث عن عمل حقيقي".

قال شريف: "ألم نجرب من قبل ولم يوظفنا أحد ما الذي سنعمله؟".

قال مصطفى: "أي شيء.. لنجرب مرة أخرى.. وأنت يا أحمد، هل أنت معنا؟".

فرك أحمد رأسه لم يكن مقتنعا بما يقولانه صديقاه لكنه كان يجب أن يوافق لأنهم لم يفترقوا يوما ودائما كان رأيهم واحدا.

قال شريف: "إذن، بعد غد سنبحث عن عمل، لأن في الغد لدي موعد مع سارقة القلب".

قال أحمد مازحا: "وهل سارقة القلب لها اسم أم ماذا".

أجاب شريف بتنهد: "اسمها لميس.. لميس".

أجابه الاثنان وقالا: "آه".

وضربهم بالوسائد التي بجانبه لأنهما تشاغبا عليه بمزحتهم.

أتى الصباح واستعد شريف للقاء لميس كما تواعدا. كان واقفا ينتظرها حتى خرجت من دارها وهي ترد الباب خلفها.

كانت ترتدي فستانا أصفر بلون الليمون. ويتوسط خصرها حزام جلدي أبيض. تلبس حذاءً رياضيًّا.. في حالتها هذه لا ينفع إلا حذاء رياضي لراحتها".

تضع نظاراتها السوداء الجميلة من يراها يعرف أنها عمياء.. تقرب منها وقال: "صباح الخير".

"شريف! لقد أتيت. صباح النور".

"طبعا سآتي هل أفوت موعدا معك".

"اوهوو.. المهم هل ستكمل اليوم بطوله أم لا؟ هذا الأهم".

"هل تعتقدين أنني لن أستطيع التحمل ليوم واحد؟ أنت لا تعرفينني أبدا".

"بالفعل". قالت لميس، أنا لا أعرفك وأريد التعرف إليك حقًّا!".

أجاب شريف بحماسة: "أستطيع أن أخبرك كل شيء".

"حسنًا، لدينا اليوم بطوله لنتحدث، لكن يجب أن نمر على بعض الأماكن قبل الذهاب للمحل".

"حسنًا.. أنا بجانبك".

"افسح لها المجال". عبرت بجانبه بابتسامة لطيفة على وجهها.

كان يطبق كل شيء تقوله وهما يسيران، حتى إنه قام بفعل نفس الأشياء التي فعلها حتى وصلا إلى نفس المقعد الذي بدأت منه الحكاية. كان ينظر متأملا وكانه بدأ عهدا جديدا من حياته بعدما التقاها. ثم أخذها إلى المحل وكان جميل بانتظارهما.. حياه هذه المرة بأدب أكثر ودخل معها. قالت لميس: "جميل، أعط أخاك شريف مريولًا من الداخل.

"بالحال". أجاب جميل.

قالت لميس: "انزع أي شيء ثمين عليك، وارتدِ المريول.. الأمور ستصبح مكركبة وملطخة بعد قليل".

أخذ شريف المريول من يد جميل وربطه على خصره وقال: "لا أرتدي أي شيء ثمين. والآن، كيف سنبدأ؟".

"تعالي معي".

مدت يدها تتحسس حتى مد هو يده لها لتمسكها. وما إن مسكت يده حتى شعر برجة كهربائية تسري في داخله. تسحبه خلفها وهو يطيعها بلا كلمة.. جلسا على مقعد صغير يعلو على الأرض بارتفاع قليل جدًّا.. أمامهم الطاولة الدائرية التي تشكل عليها قطع الفخار، وبجانبها دلو ماء تستخدمه لتلين قطع الطين به.

أمسكت بقطعة ووضعتها على القرص المتحرك. ثم قالت: "أعطني يدك".

مد يده.. كانت قد وضعت يدها على يديه وكأنها تدرب طفلا صغيرا على الكتابة. أما هو فكان لا ينظر أمامه وماذا كانت لميس تفعل.. إنما عيناه لم تتحرك من على وجهها.

كانت تشرح الطريقة التي يجب أن يتبعها في عمل القطعة ومتى يتوقف وكم كمية الماء التي يضع. كيف ينحتها بإبهامه وأصابعه، كيف يكبرها ويصغرها، لكن كل الكلام الذي قالته لم يسمع منه شيئا سوى أنه كان مركزا على شفاهها التي تتحرك وعيونها التي تبحلق في فراغ لا متناهٍ.

ولأنه لم يكن منتبها ليديه، حدث ما كان متوقعًا.. اندلق عليهم الطين الصناعي وتنافرت بعض القطع المبللة بالماء على وجههم وملابسهم.. كانت لميس

غاضبة بعض الشيء لما أوقفت القرص الدوار وقالت: "انظر ما الذي فعلته.. أنا عمياء وأعمل افضل منك".

لم يجبها، لكنه بدأ يقهقه بلا توقف وهي بادلته الضحكة أيضا.. كان ضحكهما يصل حتى الشارع.. لم تضحك لميس في حياتها هكذا قط.

توقفا يأخذان نفسا ثم قال: "تبدين رائعة.. أتدرين؟".

سكتت لميس وقالت: "فيك شيء غريب.. هل تسمح؟".

مدت يداها.. كانت تريد أن تتلمس وجهه لتحفظ تفاصيله وتقسيماته بيديها الملوثتين بالطين.. لم يمانع، بل قرب وجهه لها، كان ذائبا بين يديها مغمض العين مطلق العنان لروحه فقط. أنفاسه تعلو وتهبط بهدوء لم يشعر به من قبل وراحة كبيرة وهو بقربها، كأنه طفل ويشعر بالاطمئنان جانبها.

قالت لميس بعد أن توقفت عن لمسه: "لديك ملامح صلبة ووجه شبه متكامل".

ابتسم شريف.. قاطعهم جميل وهو يقول: "لقد جلبت طلبية أخرى ليتفاجأ بالأشياء مبعثرة". وأكمل قائلاك "ما الذي حدث هنا؟ هل مر إعصار ما؟".

لم يجب أي أحد منهما لكن بدأت نوبة ضحك أخرى.. وجميل ينظر مدهوشا.

*****

توالت الأيام.. كان لا يمر مساء إلا وشريف يوصل لميس إلى بيتها كل يوم حالما تغلق المحل.. يتحدثان كثيرا عن حياتهما وعرفت عنه كل شيء إلا ما كان يعمل في الماضي.. وهو تعرف حياتها من خلال الحكايات التي روتها له.كان في بعض الأحيان يساعد جميل في تحميل الطلبيات، عثر على عمل هو ومصطفى في الميناء بعد صعوبة وتوسلات، لم يجدوا أي عمل آخر لأنهم من دون أي أوراق ثبوتية ولا يحملون سوى ورقة ثبت عليهم اسمهم، فقط كانت مؤقتة وعليهم أن يجدودها كل سنة. ليس معهم سوى شهادة الابتدائية التي حصلوا عليها بمدارس محو الأمية، حاولوا من قبل أن يعثروا على عمل لكن بمؤهلاتهم هذه مستحيل.. فما كان إلا أن يختاروا وقتها الطريق الأسهل وهي السرقة.

والآن وبعد أن توسلوا رب العمل كثيرا قبل بهم بشكل مخفي ووعدوه أن لا يسببوا أي مشاكل، ولم يكن لديهم أي حقوق كالآخرين سوى النقود التي يأخذونها مقابل عملهم الذي يبذلون جهدا كبيرا فيه. أما أحمد فقط ماطل بأمر العمل وكان يخبرهم بأنه يبحث ولا يجد.

وبعد استلام أول راتب له كانت السعادة لا توصف. عزم صديقيه إلى المطعم، واشترى هدية ل لميس.. اشترى له بعض الملابس الجديدة ولمصطفى وأحمد أيضا.

مر شهرين عن أول لقاء كان يوم السبت عطلة أسبوعية وكان شريف قد وعد لميس بأخذها لمكان لقضاء بعض الوقت وقد حضرها كمفاجأة لها.

وقف أمام باب بيتها.. لأول مرة سيرى أمها ويأخذها من عتبة منزلها.. طرق الباب يقف هناك متوترا تعرق جبينه ويداه مثلجتان. فتحت الأم الباب..

نظرت إليه.. لم يفسر نظراتها وقالت: "أنت شريف، إذن حدثتني ابنتي عنك كثيرا".

ابتسم وقال: "سررت بمعرفتك سيدتي.. وليس حدثتني عنك".

قالت الأم: "تفضل ادخل، هل ستقف بالشارع".

أومأ برأسه قبولا. وفسحت له الأم الطريق ودخل. لم يتجرأ بالتعمق أكثر لكنه وقف بالقرب من الباب. وكان أمامه درج يصعد إلى الطابق العلو على ما يبدو.. قالت الأم: "يبدو أنك ولد لطيف يا شريف. ابنتي لم تحظَ بهكذا أصدقاء مميزين من قبل، وخاصة مثلك وهي تتحدث عنك طوال الوقت، أنت لست كبقية أصدقائها".

أجاب شريف وقال: "بصراحة، ابنتك هي المميزة.. لقد تغيرت كثيرا بسببها، ولها الفضل أن أرى الحياة بعيونها".

تنهدت الأم بحسرة وقالت: "عيونها.. يا بني تبدو طيبا. لكن أرجوك لا تجرح قلبها؛ فقلب ابنتي شفاف جدًّا".

هز برأسه موافقا. ولم يجب لأن الكلمات صمتت في حنجرته بعد أن رأى لميس وهي تنزل من الدرج بفستانها الوردي الطويل. كانت رائعة الجمال كزهرة تتفتح للتو.. لأول مرة يرى شعرها منسدلا دون رباط، عيونها ورموشها متكحلة شفتاها تلمع بلون وردي خفيف. تمسك مسند الدرج بيدها. قالت: "هل شريف أتى يا أمي".

ردت والدتها وقالت: "نعم، إنه هنا".

وهو سارح بها لا يرفع عينيه منها قالت: "أهلا يا شريف.. إن انتهيت هل نذهب الآن أم تشرب قهوة؟".

أجاب: "لا، لا داعي لنذهب أفضل"..

"أأمل أن لاتتأخرا".

قالت لميس: "لا، لن نتأخر. لا تقلقي يا أمي، هيا بنا يا شريف".

أمسكها من يدها وخرجا معًا، ثم تأبطت ذراعه وكان يشعر بالفخر لأنها بجانبه. وصلا إلى مكان إيقاف سيارات الأجرة، استقلا واحدة وأخذها إلى المكان الذي وعدها به كمفاجأة.. وصلا إلى المكان. أمسك بيدها حتى لا تتعثر رجلها وبدأ يقودها بجانبه.. كانت تستمع إلى الأصوات حولها؛ أصوات كثيرة وموسيقا مختلفة حتى الباعة صوتهم مختلف.

قالت وهي تقرب رأسها منه: "أين نحن؟ وما كل هذه الأصوات؟".

أجاب شريف: "نحن في مدينة الملاهي.. لقد قلت إنك لم تأتِ إلى الملاهي قط.. وأردت أن أخذك إليها.. ما رأيك؟".

ابتسمت لميس، احتضنته فكان هذا جوابها.. كأن بحضنها احتضن العالم كله. قالت: "أنا حقا سعيدة، وأشكرك جدًّا. هذه أجمل مفاجأة تقدم لي".

قال: "هناك شيء آخر".

قالت: "ماذا هناك بعد".

"استديري" قال.

"لماذا" قالت..

"افعلي فقط ما أطلبه منك".

"حسنًا".

استدارت.. أخرج السلسلة من جيبه وألبسها إياها.. تلمستها؛ فكانت عبارة عن قلب وسطه قلب آخر.

قالت: "شكرا لك.. لمَ كلفت نفسك؟".

"هذا أقل شيء أفعله لك.. لقد غيرت حياتي".

خجلت من كلامه وأرادت أن تتهرب من الحديث وقالت: "بمَ سنبدأ جولتنا".

أجاب: "سنجربهم كلهم.. ونبدأ بالأحصنة الدوارة".

أخذها من يدها. وتجولا في كل الأماكن حتى إنه لعب لعبة إطلاق النار وربح لها لعبة أيضا.. كان دبًّا أبيضَ كبيرًا، ثم انتقلا إلى دولاب الهواء وبينما بدأ بالصعود قال شريف: "أنا أحبك يا لميس".

ابتسمت.. أمسكت وجهه القريب منها وقالت: "وأنا أحبك يا شريف.. ولم أحب أحدًا غيرك ومثلك؛ جعلتني أعيش ما لم أعشه بكلِّ حياتي".

أمسك يديها وقبلهما وقال: "بل أنت من علمتني كيف أعيش حقًّا. قبلك كنت ضائعا وبعدك سرت بالطريق الصحيح". لم تفهم ما قاله لكنها اطمأنت بقربه.. وضعت رأسها على صدره وأكملا الجولة كلها.

كانت ليلية لا تنسى.. واعتراف بالحب لا مثيل له، رغم بساطته لكن القلوب أصبحت واحدة في تلك الثانية.

أعادها إلى المنزل كما وعد أمها. لم تتأخر.. استمتعت كثيرا، وقبل أن تتركه عند الباب، وضعت قبلة على خده تحسس مكان القبلة واقفا دون حركة كأنه

تجمد.. هذه الفتاة تأخذ عقله وتجمد الدم في عروقه.

انتبه بعد مضي دقائق أنه ما زال واقفا عند الباب وهي دخلت وأغلق خلفها.. مثل الأبله بابتسامة أكثر بلاهة لكنها مليئة بالحب.

عاد لمنزله.. التفت حوله صاحبيه ليحكي لهما ما فعل. ولكن كل ما قاله هو: "يجب أن أتزوجها".

كان سعيدا لدرجة أن أصدقاءه سعدوا بقراره، لكن بالرغم من سعادتهما لفرحه كان أحمد متوجسًا من أمر ما.. أحمد هو يعتبر الأخ الصغير. ذو ١٨ عاما كان متعلقا جدًّا ب شريف، يعتبره أخًا وأبًا، ليس فقط صديق احتم بين ذراعيه كمصطفى.

مرت الأيام وذهب شريف وإخوته أصحابه بزيارة رسمية لأم لميس. لم يتحدثوا بأي أمور سوى فقط ليتعرفوا إلى بعض، ليعطي الفرصة لأمها أن تعرفه أكثر.

وكان قد وعد لميس بأنه سيتقدم لها، ما إن يستقر أكثر. ويؤجر منزلا نظيفا ويؤثثه. ثم يجد حلًا لأصدقائه ويسكنهم بالقرب منه. يعرف أن كل هذه الأمور قد تحتاج إلى وقت، بل وقت طويل، وإجابته بأنها مستعدة أن تنتظر العمر كله.

كان يشعر بأن الحياة فتحت الباب أمامه، وخاصة بعد أن استطاع أن يقنع أحمد بالعمل لدى لميس تحت يدي جميل ليدربه.

ازدادت ساعات عمله أكثر. لأنه كان يحتاج للمال أكثر من ذي قبل، وإذا بأحد المساءات بينما كان يرفع بعض الصناديق ليحملها في حاويات مخصصة لها لتنقل على الباهرات حدث تصادم غير مقصود بين آليات التحميل. وإذا به يقع

من على الآلة التي يعمل عليها ولأنها عاليه بعض الشيء.. كان سقوطه كارثيًا.

صدى صرخته أسمع كل من في الميناء، التموا حوله ثم طلبوا سيارة الإسعاف أخذت إياه للمشفى.

كان مصطفى بجانبه طوال الليل حتى حل الصباح ليخبره الطبيب بأنه بخير حاليا لكنه يحتاج إلى عملية مستعجلة وإلا سيبقى مقعدا طوال حياته.

كان وقع الخبر كالصاعقة عليهح لم يتمالك نفسه وأجهش بالبكاء. حتى قدميه ما عادت تستطيع حمله.. كان حزينا لدرجة أن الدنيا عاندتهم بشكل كبير ولم تكمل سعادتهم قط.

تركه وعاد محملا بهموم تقصف ظهر الجمال كانهيار جبل بزلزال غير الأحوال.. عاد مصطفى لينقل الخبر لأحمد الذي لم يستطع تصديق ما حدث. وكل ما كان يفكر به أن السبب هي لميس وحبه لها. لو لم تدخل في حياتهم لما حدث كل هذا. حملها ذنب لأذب لها فيه حمل حبهما المسؤولية على خسارة صديقه ربما.

خرج يركض من البيت ودموع تنهمر كشلال متوجها إلى محل لميس الذي يعمل به منذ مدة.. ولما وجدها تجلس أمام الطاولة المستديرة. قال وهو يمسح دموعه: "كل شيء حدث بسببك".

رفعت رأسها عاقدة حاجبيها تتساءل: "أحمد.. هذا أنت؟ ماذا بك؟ ما الذي يحدث؟".

"كله بسببك..قد يخسر أخي حياته أو قدميه بسببك، لولا دخولك في حياتنا هكذا لما حدث أي شيء".

ما زالت لميس لم تفهم عن ماذا يتحدث نهضت من مكانها وقالت: "رويدا رويدا.. أفهمني ما الذي تحاول قوله".

"أخي شريف عُرِّض لحادث ليله البارحة في الميناء.كما تعلمين يعمل لوقت أكثر حتى يوفر لك ما وعد به...".

قاطعته وقالت: "توقف لحظة.. حدث لشريف حادث كيف؟ أين هو الآن؟".

ضحك أحمد بطريقة هستيرية وقال: "لماذا؟ هل ستذهبين لتكملي عليه؟ يا ليته حين سرقك ما التفت خلفه ورآك، ما كان حدث كل هذا".

رجعت لميس للخلف خطوة كادت تتعثر بالأدوات خلفها. لتفهم ما قاله للتو.. لتهضم الاتهامات التي يوجهها لها أحمد.. وقالت: "اسمع يا أحمد.. خذني لشريف حالا أو أخبرني بأي مشفى أذهب إليه، ثم سنتحدث بعدها بكل ما تقوله.

ندم أحمد للحظات لأنه أفشى لها بالسر، بسر لقائها الأول مع شريف، لكنه لم يكن يفكر بتعقل. أخبرها لأنه كان يريد أن يحمل أحدهم ما حدث لشريف.

أخذها إليه للمشفيح فكانت متوجعا جدًّا.. أخبرها الطبيب بأنه تحت المخدر نائم ويحتاج لعملية سريعة.. قالت لميس: "أخضعه للعملية فورا ولا تفكر بالنقود.. كل شيء سيجري كما يجب".

وفعلا أخضع شريف للعملية.. وجلست لميس في هذا الوقت مع أحمد ومصطفى. وشرحوا كل شيء.. لم يتبقَ أي شيء مخفي.

بعد أن خرج الطبيب غرفة العمليات.. بشرهم بالنتيجة الإيجابية. فقط

يحتاج إلى عدة شهور للتمرين الفيزيائي وسيعود مثل قبل وأفضل.

مرت الأيام.. وكانت لميس تزور شريف كل يوم لتطمئن عليه، ولم تخبره أنها عرفت كل شيء.. لكنه طلب منها أن تخبره كيف استطاعوا تدبير مبلغ النقود.

فكانت الإجابة من مصطفى: "الآنسه لميس. وضعت كل مدخراتها، وساعدنا أبناء الحي أيضا، وجمعنا مبلغا كبيرا.. ما تبقى نستطيع أن ندفعه على أقساط حالما نعود للعمل".

دمعة عينا شريف. كان يؤنبه ضميره باعتقاده أن لميس لا تعرف آخر سر.. كادت تنهض لتعود للمنزل.. أمسكها من يدها وقال: "هناك شيء آخر يجب أن تعرفيه.. يوم لقائنا الأول كنت...".

قاطعته لميس وقالت: "لم يحدث شيء. لا تفكر بالأمر بعد".

فهم أنها عرفت.. كانت أنظاره تتجول بين أحمد ومصطفى ولميس حين قالت: "يا شريف، أنا عمياء البصر لا البصيرة وأثق بقلبي لا بعيني، لا يهمني ماضيك أبدا، بل ما أنت عليه معي".

أمسكها من يدها وقبلها قال من خلف دموعه التي تتلألأ في عينيه: "ماذا فعلت يا ألله لأستحق واحدة مثلك؟".

أجابت: "كان يريد توبتك وأنا كنت الوسيلة.. ما أسعدني بهذا".

"احبك جدًّا يا لميس".

"وأنا أحبك أكثر".

# القصة السادسة.

# عشية عيد الميلاد.

نطفات الثلج تتساقط بخفة وحالما تلامس الأرض تذوب. في هذه البقعة من ولاية ويسكانسن في مدينه تسمى (door County) مقاطعة الباب. فهي منطقة سياحية خلابة خاصة في فصل الشتاء يقطنها عدد كبير من الناس وبين هؤلاء الناس تسكن ليا.

في هذا اليوم السابع من ديسمبر تبدأ المدينة بلباس حلة الميلاد فتتزين الشوارع والمحلات والبيوت حتى أعمدة الإنارة والمصاطب العامة للجلوس. والأكثر من هذا الشجرة الكبيرة في منتصف المنتزه الوطني.فهذه تنير باحتفال سنوي يقام كل سنة! فيها يتجمع العامة حولها، ويختارون طفلًا لإضاءة الشجرة كتقليد سنوي.

تقدم ليا آخر طبق لها لهذا المساء؛ حساء الفاصوليا مع اللحم المقدد المدخن على الطريقة تكساس التقليدية بجانبه صحن من الرز الأبيض. الساعة تقارب التاسعة مساء.

تنظف المطبخ مع مساعدتها وصديقتها رايتشل. لقد افتتحتا هذا المطعم منذ خمس سنين ولت. كان حلمها أن تصبح طباخا محترفة، لكن شاءت الأقدار أن تبقى في مدينتها لكنها حققت جزءًا من أحلامها بهذا المطعم الصغير في زاوية الشارع.. يتقاطع مع الفندق القديم الذي كان قصر تمتلكه إحدى العائلات الأرستقراطية في القرن التاسع عشر وحول إلى فندق فيما بعد.

انتهت ليا ورايتشل لهذا اليوم، أغلقتا المطعم وتفارقتا عند الزاوية. كان بيت ليا لا يبعد كثيرا. قرابة العشر دقائق سيرا.

الجو بارد.. هناك رياح خفيفة تضرب وجهها تضع كفيها في جيبي سترتها الشتوية. ترتدي بوتا طويلا مخصصًا لهذه الأيام من السنة حيث يبدأ الثلج بالتزايد حتى منتصف فبراير تصل إلى المنزل تخرج مفتاحها وتدخل.

الساعه العاشرة أمها تجلس أمام المدفأة وقد وضعت كأسًا من النبيذ بجانبها.

دخلت وأغلقت خلفها، نزعت قفازاتها وحذاءها الثلجي.. علقت سترتها ووضعت حقيبتها على الطاولة بالقرب من الباب وصاحت:

"ماما".

استدارت الأم برأسها من حول الأريكة وقالت: "أنا هنا يا عزيزتي".

دخلت ليا إلى الصالة وجلست بجانب أمها متعبة من الوقوف طوال اليوم في مطعمها وقالت: "آه.. كان يوما طويلا جدا".

هل تناولت طعامك أم نسيت وأنت تطعمين الزبائن".

ضحكت ليا وقالت: "لا، أكلت أنا ورايتشل قبل ساعتين تقريبا، لكن أحتاج للنوم. متى نامت روز؟

أجابت الأم وقالت:

"اووه منذ الثامنة. كانت تريد أن تريك ما رسمته اليوم فأخبرتها أن تريك غدا صباحا".

"حسنا.. جيد" قالت ليا.. سأذهب لأتفقدها، ثم أنام.. تصبحين على خير".

نهضت ليا وضعت قدمها على أول سلم للصعود إلى الطابق الثاني توقفت وقالت لأمها:

"أشكرك من أجل كل شيء تفعلينه ل روز".

رفعت الأم كأس الخمر الأحمر وقالت:

"أي شيء من أجل حفيدتي".

ابتسمت ليا وأكملت الصعود.. كانت روز نائمة في سريرها تحتضن لعبتها الصغيرة.. جلست القرفصاء بجانبها وهي تمسد رأسها وترفع خصلات شعرها التي تناثرت على وجهها.. غطت كتفها.. وضعت قبلة على جبينها، وظلت تنظر إليها.

كم تشبهين والدك يا بنتي.. تمتمت ليا بهمس.. أغلقت الباب خلفها وذهبت إلى غرفتها.. غيرت ملابسها بتعب ألقت نفسها على السرير وغطت في نوم عميق جدا

قبل عدة أعوام.

تجلس ليا على العشب الأخضر.. يلفها بذراعه رافايل.. الشاب الذي وقعت ليا في حبه منذ الثانوية تتكئ عليه مرتدية فستانا ورديا.. بجانبهما دراجتهما الهوائية كانا قد هربا من المدينة إلى داخل المحمية بجانب البحيرة الساحرة، كانت مكانهما المفضل حينما يريدان أن يبقيا وحدهما.

يتنفس ببطء وهي تتكئ عليه.تستمع بشغف إلى دقات قلبه المنتظمة.. لا يفعلان سوى الجلوس والاستمتاع بالمنظر الذي أمامهما.

قبلها من جبينها رفعت عينيها إليه وقالت: "ما الذي سنفعله بعد التخرج

لو افترقنا، كيف سنتواصل عن بعد هكذا.. هل تعتقد أننا سوف ننجح بهذا الأمر؟".

قال وهو ينظر إلى عينيها الجميلتين الزرقاوين كزرقة السماء:

" لا أدري.. لكن كل ما أعرفه اني أريدك بجانبي دائما.. ما رأيك لو سافرت معي؟".

أعدلت جلستها ونظرت مباشرة في عينه وقالت: "هل أنت مجنون.. لا يزال لدي سنة أخرى للدراسة.. كما أن أبي قد يغضب كثيرا لو فعلتها.. لا.. لا أستطيع أبدا.

عبس رافييل.. ما كان يود سماع هذا الجواب، لكن معها حق، قد يفقد والدها عقله لو فعلت شيئا كهذا.. إنها وحيدته.

قال لها: لا أود الذهاب وتركك أبدا.. أريد أن نبقى هنا مع بعض إلى الأبد.. أن لا نفترق.

قالت وهي تمسك بوجهه الطفولي ذاك من يصدق أنه ذو ١٩ عاما: سنبقى مع بعض بالتأكيد.. المهم الآن أن تربح الجامعة التي تريد وأنا سأكمل هذه السنة وألتحق بك.. أليس هذا ما قررناه منذ البداية؟".

أومأ برأسه إيجابا وأعادها إليه.. ضمها إلى صدره وتنهد قائلا: "أحبك يا ليا وسأظل أحبك دائما".

أجابت ليا: "أعرف، بل أنا متأكدة من هذا".

نظرت إلى ساعتها، وقفزت من حضنه.. قال خوفا: ما بك؟

"انظر إلى الساعة لقد تأخرنا.. يجب أن نعود".

"حسنا.. فقط هناك شيء يجب أن أفعله".

"ماذا؟" أجابت ليا.

تقرب منها.. كان يتلمس وجهها وعنقها ثم أطال النظر إلى شفاهها حتى قبلها فكادا أن يذوبا ببعض لولا أن ليا تركته لتكرر انهما تأخرا.

ركبا دراجتهما وعادا إلى المدينة، كان حبهما نقيا جدا.. عشقها رافاييل بكل حواسه لم يكن يفت يوما واحدا إلا وكانت العيون تتلاقى. في بادئ الأمر كان والدها معترضا جدا على هذا الحب الطفولي كما كان يسميه هو، لكنهم أثبتوا للجميع أن حبهم كان أكثر نضجا حتى من عمرهم..

لم يكن مجرد حب بين مراهقين عشقا بعض مثل حكايات الشباب من حولهم ولكن كانت الأرواح التي تلامست مثل حبة فول انقسمت نصفين.. ألا يقال إن لكل روح توأمها وتبقى تجول كثيرا من جسد إلى آخر حتى تجده، هكذا كان الحب بينهما. روحين التقا منذ الأزمان وبعثت من جديد فيهما؛ فهما من طينة واحدة، خلقا وتنفسا نفسا واحدا ليكملا بعضهما بعضا.

ويوم بعد يوم. يكبر الحب وتكبر الأحلام التي صيغوها من أجل حياتهم معا، لكن لسوء الحظ أن الجامعة التي كان يريدها رافاييل لم توافق على طلبه، بل كانت جامعة أخرى في ولاية واشنطن. بالتحديد سياتل؛ بعيدة عن مدينته وبعيدة عن ليا.

لما تلقى الخبر لم يعرف كيف سينقله لها؛ فإذا به يذهب إليها وكان قد قرر أن يترك أمر الجامعة لأنه لا يريد أن يترك ليا.

قابله والدها بالقرب من منزلهم استوقفه في الطريق وقال: "هل أتى خبر الجامعة يا ولد".

"نعم.. سيدي".

ولِمَ أنت حزين هكذا؟ الم توفق في القبول؟".

"بلا سيدي، لكن ليست الجامعة التي أريد".

"اها.. وجئت لتخبر ليا.. ما الذي ستفعله؟ كل خططكم باءت بالفشل.

ازاح الشاب النظر وقال: "مع الأسف".

رد عليه والدها وقال: "هل تحبها حقا".

"بالطبع يا سيدي، كثيرا".

أمسكه من كتفه وقال: "لو كنت تحبها.. ابتعد عنها.. أمامها مستقبل كبير، ستصبح محامية.. هذا ما قررناه وأنت ستكون حجر عثر في طريقها، هي تحبك، أعلم هذا، لكن الحب يضعف القرارات المصيرية التي يتخذها الناس حتى لا تؤثر في حبهم.

رفع نظره إلى الأب وقال: "ما الذي تتكلم عنه يا سيدي، أنا أعشق ليا كثيرا، وهي لا تريد أن تكون محامية، تريد أن تصبح شيفا".

أجابه الأب وقال: "لانك تشجعها على الأسهل، أما أنا أريدها أن تكون الأفضل، والافضل أن تصبح محامية وهذا الحب سيختفي بمرور الزمن، أتمنى أن تتفهم الأمر، فكر جيدا إذا كنت تحبها لن تصبح عائقا امامها".

لم يجبه لأن ليا قاطعتهم، لما رأته من نافذة المنزل.. وخرجت راكضة إليه

لتحدثه.. أما والدها ركب سيارته واتجه إلى عمله.

قفزت إليه تحتضنه وتقبله بسعادة لا توصف وقالت:

"هل جاءك الرد؟".

هز رأسه وكان لا يزال منصدما من كلام والدها الذي هدم لتوه كل الأحلام وقال:

"نعم".

عقدت حاجبيها وقالت: "وما بالك حزين هكذا".

قال: "لأنها ليست نفس الجامعة.. سأدرس في سياتل".

"ماذا.. أين؟".

"نعم.. في سياتل".

"وهل ستذهب".

"لا أدري".

قالت ليا وهي تمسك بيده: "لا يهم.. فكر جيدا.. تعال لنتمشى قليلا تبدو مهموما".

تأبطت ذراعه وأخذا يمشيان معا.. كان الصمت الذي يقومان به مع بعض دائما يسكن روحهما، ويجعلانهما يفكران بروية وعمق أكثر.

أما رافاييل فما كان في فكره إلا الحديث الذي أجراه مع والدها والكلام الذي قاله له. هو ليس عثرة في طريقها بل بالعكس. لكن ماذا لو كان كلام الأب حقيقة ماذا لو أن شغفهما وحبهما سيمر عليه يوم وينطفئ. لكن لا..

فكر رافاييل، حبها لن ينطفئ من قلبه أبدا لانهما خلقا لبعض، وهذا الأمر

يؤمن به كثيرا، ودائما ما يردد لها ويقول.

"لو أرسلت أرواحهم في عوالم أخرى وزمن آخر، سيلتقون حتما".

*****

استيقظت ليا على قفز روز فوق السرير وبيدها ورقة بيضاء قد لونت عليها ببعض الألوان.. أجبرتها على فتح عينيها فأخذتها إليها واحتضنتها وبدأت تدغدغها، وبروز تضحك بقهقهات ملأت الغرفة؛ قبلتها، شمتها، ضمتها إليها. ثم قالت: "ما زال الصباح باكرا.. لمَ أنت مستيقظة منذ الآن؟".

أجابت روز بدلع فتاة ذي الثمانية أعوام: "ماذا افعل؟ أنام مبكرا.. أصحو مبكرة.. كما أنك لم تري رسمة أمس".

ابتسمت ليا وقالت: "هاتها.. لأراها جدتك أخبرتني أنك رسمتِها".

"ها هي".

مدت روز الورقة أمام أمها، نظرت إليها ليا وقالت: "ما هذا؟".

أجابت روز: "إنها أنت، وأنا وجدتي".

ضاقت عيناها وهي تحاول معرفة ماذا يعني الرسم الآخر الذي رسمته على جنب وقالت: "وما هذا الذي هنا، يبدو كرجل فضائي".

قالت بهمس حزين: "إنه أبي".

سكتت ليا.. كانت كلماتها مخنوقة في حنجرتها.. فقالت لها وهي تبلع ريقها: "ولكن ولدك ليس مخلوقًا فضائيًّا.. إنه إنسان عادي".

أخذت ليا ابنتها وأقعدتها في حضنها فردت عليها روز: "وأين هو، لمَ لا أراه أو تريني إياه؟ لمَ تركنا؟ ألا يحبني؟

"لا، ليس هكذا أبدا". أجابت ليا.

والدك لم يتركك يا حبيبتي لكن هناك أشياء لن تستطيعي فهمها وأنت صغيرة. ستفهمينها حينما تكبرين.

عبست روز وقالت بغضب: "أنا كبيرة.. كبيرة لدرجة أني سأفهم جيدا ما الذي حدث بينكما".

ضحكت ليا وقالت: "ربما تحتاجين إلى سنة أخرى بعد".

قالت روز: "لا.. أنت لا تريدين إخباري من هو أبي.. في المدرسة أتخيل آباء صديقاتي أحدهم كوالدي".

حزنت ليا كثيرا جدًّا، لم تعرف بماذا تجيبها، ولكن ابنتها تستحق أن تعرف شيئا عن والدها.. نهضت ليا من سريرها. قالت: "تعالي معي لأنك كبرت الآن كما تقولين فسأطلعك على أمر ما".

"أين تأخذينني يا ماما". أجابت روز.

"سآخذك لتري والدك".

حملتها بين ذراعيها وهما الاثنتين بشعرهما المنقوش وبجامة نومهما.. أخذتا إياها إلى العليا أنزلتها وبدأت تفتش على صندوق صغير كانت قد خبأته في زاوية ما من العليا.. وجدته وكان الغبار قد تراكم عليه نفضت عنه الغبار وفتحت الصندوق الخشبي. وجدت عدة صور وهدايا ووردة ذابلة كانت قد احتفظت بها أيضا.

أخرجت ما في الصندوق وقالت: "انظري هذه الوردة أهداني إياها والدك في حفلة تخرجه في الثانوية.. كنت أنا رفيقته حينها.. وهذه السلسلة أهداني إياها

يوم عيد ميلادي.. وهنا بعض الهدايا الأخرى.

ابتسمت الطفلة؛ لأول مرة تشعر أن والدها قريب منها. قالت: "هل أستطيع لبس هذه السلسلة يا أمي".

قالت الأم: "بالطبع، التفتي سألبسك إياها".

وضعت السلسلة على عنقها.. أمسكتها روز بيدها تتمعن فيها كانت بشكل وردة جورية.. قالت: "روز.. هل بسبب هذه السلسلة سميتني؟".

"نعم كان والدك يحب الورد الجوري والآن هذه صورة والدك".

أخذت روز الصورة من أمها..كانت تنظر إلى والدها لأول مرة هو يحتضنها من الخلف.. يضحكان... لديه عينان بنيتان بشعر أشقر.. يبدوان صغيران هنا. لكن وجه أمها لم يتغير قط.. قالت لها: "أنت لم تتغيري كثيرا.. هل تغير أبي يا ترى؟".

"لا أدري يا صغيرتي.. لا أعلم، لكن لا أعتقد أنه تغير كثيرًا".

"لمَ لم يأت لزيارتنا قط لما تركك".

"ليس لدي أدنى شك انه كان سيكون سعيدا لو رآك، لكن قطعت أخباره منذ ليلة عشية الميلاد، وبعدها لم يأتِ إلى المدينة قط مرة أخرى".

"ألم يحبك كفاية؟". قالت روز.

"بل أحبني، لكن لا نعرف الظروف، والآن الصورة معك وأصبحت تعرفين من والدك، هل ننزل للفطور لأني يجب أن أذهب للمطعم".

"هل آتي معك اليوم؟ أرجوك".

توسلت روز لأمها أن تأخذها معها.. ووافقت شرط أن تبقى ساعتين فقط

ثم تأتي جدتها لتعيدها للمنزل.

كان يدرس بعض الملفات التي وضعت أمامه، ويقيم الأرباح التي ستكسبها الشركة القابضة التي يعمل فيها خلال سنتين.. فقط استطاع أن يصل إلى ما هو عليه بجهده وعمله المثابر، وقد حان له الوقت ليستلم أول مشروع يرأسه هو.

كان يحضر بكل جدية البرنامج الذي سيقدمه والدلائل التي ستؤكد نجاح فكرته المطروحة في خطة المشروع التي أوكلت إليه.

طرق الباب مساعده قائلا: سيد رافاييل.. المدير العام يطلبك لاجتماع عاجل.

رفع رأسه رافاييل من بيت كومة الأوراق التي أمامه، ونهض رتب ملابسه وأخذ أحد الملفات بيده وذهب مسرعا إلى غرفة المدير.. تنفس بعمق قبل أن يطرق الباب ويدخل.. رفع المدير رأسه وحياه قائلا: "رافاييل.. الوجه الذي أريد أن أرى.. تعال اجلس".

جلس رافاييل ووضع الملف على الطاولة وقال: "ما الأمر". يحاضره المدير.

قال: طهناك مشروع مهم جدا علينا تقيمه".

"صحيح.. أين؟". سأل رفاييل.

"أين... هذا سؤال رائع بصراحة لم يخطر في بالي غيرك من أجله.. أعتقد أنك ستكون الأفضل وإذا نجحت فيه سأجعلك مديرًا لهذا المشروع بالإضافة إلى الآخر.. ما رأيك؟".

تحمس رافاييل وقال: كلي آذان صاغية.

## قبل بضع سنوات.

تتوالى الأيام.. ويأتي الشتاء الثقيل الذي يكسو على المدينة بغطائه الأبيض ويعود رافاييل.. الذي غادر من أجل الدراسة في الجامعة عاد في عطلة الأعياد إلى المدينة التي ولد فيها، والتقته ليا التي كانت مشتاقة إليه كثيرا.. عاد لكي يأخذ جده ويعيش معه لأنه ليس لديه أحد سوى جده الذي رباه بعد أن توفي والديه وهو طفل صغير.

كانت الأيام التي قضاها في تلك العطلة من أجمل أيام حياته وخاصة بسبب الاشتياق الذي كان يعصر قلبه لرؤية ليا.

ترتمي بين أحضانه وهو يميد شعرها. فقال: ماذا قررت بشأن دراستك. هل ما زال والدك يريد أن تتقدمي لكلية الحقوق؟

"لها". أجابت ليا.

"وماذا ستفعلين؟ هل ستفعلين مايقوله والدك؟".

"أعتقد هذا لا أريده أن يحزن أنها أربع سنوات بكل الأحوال". أجابت ليا.

"إذا تتخلين عن حلمك بأن تصبحي شيفا".

"لا.. لم أتخلَ.. فقط سأؤجله".

"حسنًا كما تريدين".

استدارت إليه.. كان حديثه مثقلًا وكان هناك أثر يخفيه فقالت: ماذا بك؟ تبدو مهموما.

"لا أبدا. لكني سأشتاق لك عندما أرحل".

"هل أنت متأكد أنك لا تستطيع البقاء حتى تنتهي الأعياد".

"كنت أتمنى هذا حقا، لكن يجب أن أسافر عشية ليلة الميلاد".

تنهدت ليا وقالت: أرسل لي دائما.

"سأفعل". أجابها ولثم شفتيها. لم يقاوم وجودها بين ذراعيه.. لم يستكشف جسدها الرائع من قبل، كان يؤجل كل شيء حتى ليجرحها لكن كا لقربها منه حكاية وعطر جسدها الذي دائما ما يثير حواسه. لمساتها التي كانت تلهب جسده. لم يستطع المقاومة وهي تستسلم دائما بجانبه. لا تحمل أي سلاح لتدافع عن أراضيها بل تركته يستبيح كل شبر فيها. كأنها تودعه بجسدها وروحها. كأنه يقول لها لتكن هذه الذكريات التي لن تمحيها السنين. كان حبهما شيئًا عجيبًا.

خرج رافاييل من غرفة المدير وهو موكل بمشروع سيعيده سنين إلى الوراء. سيعيده إلى المدينة التي ولد فيها وماتت كل أحلامه فيها.

لم يكن قادرا على الرفض فإذا رفض يعني انتهاء مسيرته المهنية في شركة مثل هذا المستوى. كيف يضيع عليه فرصة كهذه.

دخل إلى غرفته وطلب من مساعده أن لا يزعجه أبدا. أغلق الباب عليه ووقف بجانب النافذة ينظر إلى الأفق. يستعيد ذكريات ما زال يعيش عليها وما زالت تتداخل في أحلامه.

وضع يديه في جيب بنطاله تنفس بعمق وأغمض عينيه. تراءت له صورة ليا وهي تودعه تلك الليلة في المطار قبل أن يرحل. البكاء الذي شهده وكأنه أحس بأنها آخر مرة يراها فيها وكان إحساسه صادقًا جدا

سيذهب هذا ما قرره لا بد في يوم من الأيام سيعود إلى تلك المدينة التي دفن أحلامه فيها وسيتواجه مع حقيقته لن يتأخر يحتاج ليومين فقط حتى يقدم الفكرة للمشروع ويعود، حتى إنه قد لا يصادف مع أحد يعرفه. قد لا يراها أصلا. هو لا يعرف أي أخبار عنها منذ زمن.

سيذهب.. لقد مرت الكثير من السنين كما يمر الماء في النهر ويأخذ معه كل شيء قديم. أعد حقيبته وفي اليوم التالي سافر وهو يتمنى أن يراها حتى ولو من بعيد.

*****

اليوم الرابع عشر من ديسمبر قد صادف الجمعة ومن بعده تبدأ عطلة أعياد الميلاد ورأس السنة، تغلق المدارس لثلاثة أسابيع تقريبا. وهو من أكثر الأشهر التي تحبها روز. بالإضافة إلى الهدايا فهي تستطيع الذهاب إلى مطعم أمها متى ما تحب.

كانت جدتها قد مرت عليها إلى المدرسة لتأخذها وتعيدها إلى المنزل لكنها طلبت من جدتها أن تأخذها لتشتري هديه لأمها من أجل أن تقدمها لها في صباح العيد. وافقت الجدة كما أنها اقترحت أن تشتري هي الأخرى هدية وتقدمها ل ليا معها.

فدخلتا معا إلى المحل؛ كان يبيع أعمالًا مصنوعة باليد. فافترقتا كل واحدة على حدة، ولأن صاحب المحل يعرف ليا وجدتها فما كان من خوف على طفلة أن تتجول وحدها هناك.

وبينما كانت تبحث عن هدية مميزة اصطدمت برجل فجأة.. كان رجلًا ضخمًا يرتدي بدلة رصاصية اللون بشعر أشقر غامق ولحية تزين وجهه، وحاجبيه قد غمق لونهما الأشقر.

قال وهو خائف إذا أصابها شيء: هل أنت بخير يا صغيرة؟

أجابت روز: "أنا بخير.. شكرا.

قال الرجل: والذي تفعله فتاة صغيرة وحدها هنا.

أجابت: لست وحدي؛ جدتي هنا.

قال لها: حسن.. ما اسمك؟

"أنا اسمي روز".

"جميل اسمك.. وأنا رافاييل، سررت بمعرفتك".

قالت روز: "أبي اسمه رافاييل". ثم لف الحزن وجهها.

فقال هو: آه.. ولمَ أنت حزينة هكذا؟.

"لا شيء.. ليس مهما".

وتركته وابتعدت.. لم يفهم شيئا.. كيف ظهرت أمامه؟ وكيف رحلت؟ بل غابت عن الأنظار.

أخذت جدتها وخرجت مسرعة.. لم يعجبها أي شيء.. كانت حزينة.. ربما لم تشترِ شيئا لأنها حزينة. كم تود أن تعيش حياة طبيعية مع أم وأب مثل باقي أصدقائها.

قالت الجدة لها: لمَ خرجنا مسرعين ياروز؟ وكنت متشوقة لشراء هدية لأمك.

رفعت كتفها.وقالت: لم يعجبني شيئا.. سأصنع لها شيئا مختلفًا.

ابتسمت الجدة وقالت: ماذا أفعل لتحسين مزاجك الذي تعكر فجأة؟

استدارت الطفلة بحماسة وقالت: شراب كاكاو ساخن.. أمم لذيذ.

قالت الجدة: بكل سرور بالطبع.. سأعده لك حال وصولنا إلى المنزل.

كانت ليا في الخلف تعمل على إعداد طبق لأحد الزبائن.. نادت عليها رايتشر قائلة: ليا.. هناك أحد يريد رؤيتك.

"حسنًا.. خذي هذا الطبق للطاولة خمسة وأنا آتية خلفك".

غسلت ليا يديها وخرجت. سلمت على الرجل الواقف خلف المنضدة (counter) كان رجل في العشرينيات من عمره يرتدي بذلة أنيقة.. بابتسامة لطيفه على وجهه قال لها: "مرحبا، اسمي بيتر.. وكنت أريد أن أسألك عن أمر ما".

أجابت ليا قائلا: "طبعا تفضل سيد بيتر لنجلس هنا، ونتحدث".

أشارت له على منضدة فارغة وكرسيين. ثم جلسا فقال لها: بصراحة يا آنسة.كنت أريد أن أسألك لو أنك تقيمين أمسيات في مطعمك البسيط هذا.. لدينا اجتماع خاص وبعدد لا يقل عن ١٥ شخصية ونحتاج لمكان يقدم الطعام والشراب.. فهل هناك إمكانية لموافقتك.. لأني تحريت جيدا وأخبروني أنك أفضل شيف في هذه المدينة.

ابتسمت ليا وقالت: بصراحة لم أقم هكذا أمسيات من قبل.. لكن ليس مستحيلا.. دعني أتشاور مع شريكتي لو سمحت.

"آه.طبعا طبعا". أجاب بيتر.

نهضت ليا وذهبت لتتحدث مع رايتشر وتسألها عن رأيها فشجعتها رايتشر وأخبرتها أنه قد تكون فرصة أيضا قد يوجد بينهم من يعجبه نكهات، ويقدمك لأحد معارفه المشهورين. لا أحد يعلم ماذا يضع الله في طريقنا. وقد نفعل شيئا ما ويخرج من تحته أمر آخر.

اقتنعت ليا بما قالته رايتشر لها، عادت إلى حيث يجلس بيتر. وقالت: أعتقد أن ليس هناك مشكلة ما. وهي فرصة جيدة للتغير. لكن هل أنت من ستعطيني قائمة الطعام أو أنا أعدها.

سعد بيتر بجوابها وقال بحماسة: "لتقدمي لنا من أطباقك المشهورة.. فلاجئينا لكن يجب أن لا يقل عن ٢٠ نوعا. بالإضافة إلى الحلويات، وهذا شيك بالمقدم. والمؤخر سأقدم لك بقدره إذا لم يكن كافيا سأغيره".

أخذت الشيك من يده. نظرت إلى الرقم. كان ٣٠٠ دولار. لم ترَ خلال الأعوام الماضية شيكا واحدا بهذا القدر. ابتسمت وقالت: "لا هذا يكفي.. ومثله عند انتهاء الأمسية".

"نعم". هز بيتر رأسه إيجابا.

سألته هي سؤالا آخر: "ومتى الاحتفال أو الأمسية التي ستقومون بها".

أجاب بيتر: غدا. عند السابعة مساء.

"ماذا؟". توسعت عيناها.باندهاش وهي تفكر متى وكيف ستلحق بكل هذا خلال ساعات.

"غدا. وأنا أؤمن بقدراتك آنسة ليا. لا أدري لماذا لكني أثق بك.. والآن يجب أن اذهب لأن رئيسي يحتاج إليَّ وأراك غدا".

نهض بيتر باستعجال. وهي عادت إلى رايتشر بالشيك وأعطته إياه.. قالت رايتشر وهي تنظر إلى الشيك والمبلغ الذي بين يدها: هذا رائع يا ليا. سيكون يوما رائعا أني أشعر به.

لكن يا صديقتي كيف سنلحق بإعداد ٢٠ نوعا من الطعام.

أجابت رايتشر: "سنأتي من الصباح الباكر، ونعمل حتى المساء ثم أنت تبقين في الخلف تكملين وأنا هنا لاستقبالهم.. إذا أردت، أجلب ماثيو لمساعدتنا".

هزت ليا رأسها موافقة: "ثلاثة أفضل من اثنين".

كانتا دائما هما الاثنتين في المطعم. يكتظ بالزبائن في فصل الصيف وقبيل عيد الميلاد قد يحتفل بغض الناس بأعياد ميلادهم مثلا، لكن لم يحصل من قبل أن يغلق المطعم كله ويحجز من أجل أمسية لرجال الأعمال. وهذه تجربة مهمة ويجب أن تقدم أفضل ما لديها.

عادت تلك الليلة إلى المنزل وبقيت مستيقظة لساعات طويلة تعد قائمة الأطعمة التي ستعدها وتقدمها. كما أنها قامت بإعداد بعض الصلصات في المنزل بخلطات جديدة لتكون وصفة جديدة بالإضافة إلى الأطباق التي تعودت صنعها.

غفت في الصالة بعد أن شعرت بالنعاس ولم تصعد إلى غرفتها وضعت منبها الاستيقاظ عند الساعة الثامنة لأنها ستذهب للتسوق أيضا. تريد أن يكون كل شيء طازجا من السوق إلى الأواني للطبخ.

نهضت بعد أن رن المنبه أوقفته. جرجرت نفسها بصعوبة بعضلات متشنجة إثر نومها على الأريكة، مطت نفسها قليلا رفعت شعرها بيديها ونهضت مسرعة إلى الحمام استحمت وخرجت حتى قبل أن تستيقظ روز وتراها.

أخذت الشيك الذي أعطى لها البارحة من قبل السيد بيتر صرفته من البنك أخذت النقود أودعت بعضها في حساب المطعم. والقسم الآخر أخذته لكي تشتري ما تحتاج إليه لهذه الليلة.

خرجت من البنك تقابلت مع رايتشر في سوق الأسماك واللحوم. تبضعا قليلا ثم انتقلا إلى سوق الخضراوات والفواكه لتكملن التسوق وبعدها تتجهان إلى المطعم. وتبدآن بتحضير ما سيقومان بتقديمه في هذه الأمسية اليوم.

استقبلت بعض من الزبائن في فترة الصباح ثم أغلقته بعد الواحدة ظهرا من أجل التحضير لأجل الليلة. غيرت رايتشر وأخيها الأصغر ماثيو ترتيب الطاولات وغيرت الديكور مؤقتا. ثم انضمت ل ليا لمساعدتها في استكمال الأعمال المتبقية.

كانت روائح الطعام تعبئ المكان وماثيو يقوم بتذوق كل الأطباق وهو يقول: "لم أتذوق بحياتي شيئًا مثل هذا أنت عالمية يا ليا لو أنك فقط تخرجين من هنا سيتهافت عليك كل أصحاب المطاعم للعمل معك".

ضحكت ليا وقالت: "لتنتهي هذه الليلة بخير ثم أفكر بما تقوله أعدك".

وعادت تقلب في المقلات التي أمامها لتنجز ما تبقى من الأطعمة التي لم تنهِ غير أربعة منها فقط.

في الفندق كان بيتر يطرق الباب على غرفة رافاييل، يفتح له. كان الأخير يضع ربطة العنق ويربطها قائلا: "ما زال هناك بعض الوقت الست مستعجلا قليلا".

أجابه بيتر وقال: "يجب أن تعرف شيئا مهما. السيد آدم قد يكون رجل صعب لإقناعه وقد جلبت لك بعض المعلومات التي قد تستفيد منها خلال تحدثك معه".

قال رافاييل: هو يرتدي سترة بدلته.

"حسنًا أنا أشكر اهتمامك لكني أعلم ما الذي سأفعله، لقد دربت نفسي لا مواقف أكثر صعوبة لا تقلق سيكون المشروع من ضمن مشاريع شركتنا لا تهتم بالأمر فقط.. اهتم أنت بالعلاقات الاجتماعية ولا تنسي أن تكون متفائلا جدا.

ابتسم بيتر وقال: حسنًا.. جيد.

"ما أخبار المطعم هل تعتقد أنه مكان جيد؟ أنا لست مقتنعا بعد.. يبدو أنني أخطأت في موافقتي أن نقوم بالاجتماع بمطعم محلي. كان يجدر بنا أن نؤجر صالة أكثر رقيا".

أجابه بيتر وقال: بالعكس في هذا المطعم تشعر أنك تعود إلى جذورك فيه رائحة الماضي.. لا أدري هكذا أحسست حينما دخلت إليه. والفتاة هناك لطيفه جدا لقد أشاد جميع من سألتهم بطعامها التي تقدمه.

"حسنًا.. كما ترى". قال رافاييل وهو ينظر إلى ساعته أكمل قائلا: "هل نخرج يا ترى أم ننتظر بعد؟".

قال بيتر: "يجب أن نخرج الآن الساعة تقارب السادسة والنصف ونحتاج

إلى أن نكون هناك قبلهم للاطمئنان على كل شيء".

"تماما.. هيا بنا". أجاب رافاييل وخرجا معًا ذاهبين إلى المطعم...

*****

انتهت رايتشر من ترتيب الطاولات التي ستوضع عليها كل أنواع الأطعمة التي حضر معظمها ولم يتبقَ إلا الحلويات وهذه ستقدم بعد العشاء.

كان كل شيء يبدو رائعًا من بعيد تم تنظيم المطعم بشكل احترافي جدا، حتى رايتشر وماثيو لم يصدقا أنهما هنا، بينما كانت ليا تعد الطعام في الخلف ندهت رايتشر وقالت: ليا تعالي وانظري بنفسك.. أعتقد أنني يجب أن أعمل في تنظيم الحفلات أيضا.

ضحك ماثيو بينما أتت ليا كان في يدها سكينها التي تقطع بها وقالت: "بصراحة رائع أنا أهنئك حقا.. آه يا رايتشر بدونك ما كنت استطعت فعل هذا.

كانت تريد أن تحتضنها لكن ابتعدت وقالت مازحه: "احتضنيني ويداك فارغتان.. من سيراك سيقول إنك تريدين قتلي".

ابتسمت ليا وعادت إلى الخلف إلى المطبخ حيث المكان التي تحب أن تكون موجودة فيه بالأكثر.

بعد دقائق سمع صوت الباب يفتح يدخل شابان أنيقان للغاية.. عرفت رايتشر أحدهما وكان بيتر.. ألقت التحية عليه وعرَّفها إلى رافاييل. فأخذتهما إلى إحدى الطاولات، ثم أتى ماثيو ليرى إذا كأنا يحتاجا إلى شيء فأجلا طلب أي شيء حال يأتي الضيوف.

أعجب بيتر بالمكان ورافاييل أيضا.

لم تمر ربع ساعة حتى بدأ رجال الأعمال في القدوم واحدا تلو الآخر.. اكتظ المكان بهم، وكل مجموعة كانت واقفة مع بعض تتحدث وتتبادل المعلومات، بدأ العشاء. وكان كل من في الليلة يشيد بالطعام حتى بعد أن قدمت الحلويات فكانوا مدهوشين جدا أن شيفًا بهذه الدرجة من الإبداع يبقى محبوسا في مدينة صغيرة ولا يصبح عالميا ولم يسمع به أحد.

طلب الجميع أن يلتقوا الشيف ويشكرونه شخصيا.. كانت رايتشر فخورة جدا بما قدمته صديقتها بل كانت متأكدة أنها ستبهر الجميع ذهبت للخلف وندمت ليا قائلة: "الكل في الخارج يطلبون رؤيتك ليشكروك على إبداعاتك في الطعام هل ستخرجين أم اعتذر منهم".

"لا، لا، سأخرج حالا. شكرا لك يارايتشل كنت خير عون لي".

أجابت صديقتها: "بل أنت من فعل كل هذا لا أنا وتستحقين التصفيق". خرجت رايتشر ثم نوهت للجميع بقدوم الشيف بينما كان رافاييل يتحدث وظهره عكس ليا سمع صوتها وهي تشكر الجميع والكل يصفق لها ويهنئها.

استدار ليتأكد من أن من يتحدث هو ليا فعلا.. لم يصدق ما تسمعه أذناه.

أبعد بعض الرجال من أمامه ووقف في الصف الأول بمواجهة ليا؛ التي كانت تبتسم كما عهدها رائعة خلابة تخطف الأنوار دائما، كان مدهوشا لدرجة أنها لم تتغير حتى. قد يكون شعرها أقصر قليلا لكن ما زالت رائعة كما هي.. تقدم ببطء وقال: "ليا.. هذه أنت فعلا".

سمعت صوته، ذلك الصوت الذي كانت دائما تسمعه في صوت ابنتها الصغيرة، اختفت الابتسامة من وجهها واختفت هي أيضا من بين الحضور.

استغرب الجميع ما فعلت.لحق بها رافييل وهو ينده: "ليا.. ليا توقفي".

كانت ليا تبتعد بسرعة حتى إنها خرجت من الباب الخلفي للمطعم وهو يلحق بها.. وجدها تصرخ في الزقاق المظلم. قالت وبكل غضب تفجر الآن في هذه اللحظة: "ما الذي أتى بك إلى هنا بعد كل هذه السنين؟ ما الذي تفعله؟".

أجابها وهو يحاول أن يجعلها تهدأ أن يفهمها أنه لم يكن يعلم بوجودها بعد أن انقطعت أخبارها عته قال: "اهدئي أرجوك.. لم أكن أعلم...".

قاطعته قائلة: "لم تكن تعلم ماذا؟ أني ما زلت هنا أبكي على الأطلال أم ما زلت أنتظر عودتك ثماني سنين وأكثر وأنا أنتظر منك رسالة واحدة ثماني سنين وأكثر. اللعنة عليك".

أجابها والحيرة على وجهه: "ما الذي تقوليه.. هو أرسل عشرات الرسائل ولم تجبه هي.. ولما وصله جوابها كانت تخبره أن ينساها". قال: "ما الذي تقولينه يا ليا لقد أرسلت لك الكثير من الرسائل صدقيني أنت لم تجيبي".

"كاذب.. عليك اللعنة.. أنت كاذب.. أناني.. وأنا غبية.. ما زلت أعيش الماضي".

تركته وغادرت بسرعة ركض خلفها لكنها توارت عن الأنظار كانت الساعة تشير الحادية عشرة ليلا. ولم يستطع أن يترك كل الرجال في المطعم. عاد إليهم وهو يفكر أنه سيذهب في الصباح التالي إلى بيتهم.

ما زالت موجودة.. لم يتوقع هذا خاصة بعد الرسالة الوحيدة التي وصلته منها.

قبل بضعة أعوام.

بعد أن عاد رافاييل وجده إلى سياتل كان يرسل كل أسبوع رسالة لعنوان ليا ولكن لم يكن يصله أي جواب عليها، حتى إنه اتصل بها مرتين وكان والدها من يجيب ويخبره أنها ليست موجودة فيطلب منه رافاييل أن تتصل به وكان قد ترك رقم هاتفه عدة مرات لكن لم تتصل به قط، وبعد شهرين تقريبًا، وصلته رسالة في البريد لما عرف أنها منها كاد يطير فرحا ولم يصبر أن يدخل إلى شقته ويقرأها بل قرأها وهو بجانب صندوق البريد. لكن كان كلما يقرأ سطرا كلما دخل خنجرا يمزق أحشائه، أخبرته ليا بأنها ستغادر المدينة بعد تخرجها وستدرس المحاماة وأنها تريد أن تبني حياة جديدة ولن تستطيع أن تكمل حياتها معه. وتتمنى له كل الخير والحب أن وجد.

كانت تلك الكلمات تمزقه إلى أشلاء؛ فاعتصر الورقة بيده ومزقها إلى مئات القطع الصغيرة فكان غضبه لا يطاق لأسابيع طويلة، حتى استسلم للأمر، وأقسم أنه لن يخطو أبدا إلى (مقاطعة الباب) مرة أخرى وسيفعل المستحيل حتى ينساها. لكن كما يبدو أنه لن يستطع الوفاء بقسمه ولا استطاع أن ينساها رغم دفن نفسه بالدراسة والعمل بعدها.

عادت ليا إلى المنزل كانت أمها وابنتها نائمتين. ليس لديها القوة على شرح أي شيء لها وهي بهذه الحالة لو سألتها ما بها. دخلت إلى غرفتها وحبست نفسها بالحمام. وبدأت تبكي بحرقة وتئن وكأنها تخرج كل الحزن الذي دفن في داخلها لسنين طويلة وهي تمثل القوة من أجل ابنتها.

بعد ساعة من النحيب، تمالكت نفسها ودخلت إلى غرفة ابنتها استلقت بجانبها احتضنتها وغفت من تعب اليوم بأكمله بل تعب السنين الماضية.

انتهى الحفل وتفرق الرجال، أما رافاييل فكان يودعهم الواحد تلو الآخر. ورايتشل تنظر إليه بنظرات غريبة تريد أن تعرف ما الذي حدث بينه وبين ليا ولما لم تعد للمطعم بد أن خرجت. وما علاقتهما ببعض.

بعد أن غادر الجميع ولم يتبقَ سواه وبيتر تقدمت رايتشل إليه متسائلة وقالت: من أين تعرف ليا يا سيد رافاييل؟ وم الذي حدث بينكما؟

أجابها رافاييل بتنهد وقال: " أنا حبيبها؛ أقصد حبيبها السابق".

توسعت عينا كل من سمع ما قاله للتو فأجابت رايتشل: هل أنت هو بحق؟ يا إلهي معنى هذا أنك...

قاطعها ماثيو لم يدعها تكمل.. كانت على وشك أن تقول شيئًا ما من حقها قوله فسكتت، ثم أكملت: ولمَ ظهرت الآن فجأة بعد كل هذه السنين؟

قال لها: لم أكن أنوي ذلك. يبدو أن وجودي أزعج الجميع حقا، لكني سأرحل قريبا وكأني لم أكن موجودا أصلا.

"هَذَا ما أنت جيد فيه أصلا". تمتمت رايتشل.

قال رافاييل: "عفوا ماذا تقصدين؟".

قالت: "لا أقصد شيئا، لكن أعتقد أنك يجب أن تتحدث معها قبل أن ترحل. هناك أمور يجب أن تكتمل بينكما".

عقد حاجبيه وقال: "ما الذي تقصدينه؟ تكلمي".

قاطعهم ماثيو وقال: "تقصد أختي أن الأمر بينكم وهذا لا يخصنا أليس كذلك يا رايتشل؟".

هزت رايتشر رأسها إيجابا، شكرهم بيتر على كل شيء أعطاهم الشك الثاني كما وعد ليا به. أخذ رافاييل معطفه وخرج من المطعم هما الاثنين. وهو يفكر بما كانت تلمح به صديقتها.

الساعة التاسعة صباحا. صوت طرقات على الباب، "من يكون يا ترى". تردد الأم وهي تذهب لترى من هناك. تفتح الباب وتراه يقف أمامها.. للحظة ما عرفته لكن بعد أن قال: "مرحبا سيدة كامب.. كيف حالك؟".

صغرت عيناها وقالت: "هل هذا أنت يا بني.. أنت يا رفاييل.. لا أصدق عيني".

ابتسم رافييل وقال: "نعم أنا.. هل تسمحين لي بالدخول؟".

أزاحت من أمامه وهي تقول: "لقد تغيرت كثيرا يا ولد.. لم أكد أتعرف إليك".

قال: "ليس كثيرا.. ربما لحيتي قد غيرتني".

"فعلا". أجابت أم ليا ثم سألت: "لقد أعددت القهوة هل تريد بعضًا منها".

قال: "شكرا لا أريد، لكني جئت لأحدث ليا.. لم نكمل كلامنا ليله البارحة".

"هل رأيتها البارحة؟ أين؟".

وبدأ يشرح لها.. وإذا بها تنزل من الطابق الثاني.. لما رآها، نهض من على الأريكة فقالت: "ما الذي أتى بك إلى هنا".

"يجب علينا أن نتحدث".

"ليس هناك شيء نقوله لبعض. أرجوك اخرج".

"لا.. هناك الكثير ليقال ويفسر".

"إني أخبرك لا يوجد شيء.. ألا تفهم؟ عد من حيث أتيت".

وبينما هما يتجادلان وقفت روز بينهما وقالت: "ماما.. من هذا؟".

التفت الاثنان إليها.. نظر جيدا.. إنه يعرفها لقد رآها من قبل.. نعم.. رآها بالمحل ذلك اليوم، لكن تقول ل ليا ماما هل هذه ابنتها.. استغرب جدا قاطعت ذهولها وقالت: "أنا أعرف هذا السيد.. لقد اصطدمت به في متجر الهدايا".

ابتسم رافاييل وتقرب منها ونزل إلى الأرض ليصبح بمستواها وقال: "نعم، هذا أنا، وأنت على ما يبدو ابنه ليا".

"نعم". أجابت الطفلة: "اسمي روز، وأنت؟".

قال: "اسمي رافاييل. إني صديق قديم لأمك".

رفعت الصغيرة رأسها إلى أمها وقالت: "هل هذا أبي يا أمي.. اسمه رافاييل مثل أبي".

استدار رافاييل بدهشة لا يصدقها.. وقال: "ما الذي تقوله الطفلة يا ليا.. أنا والدها هل هذا صحيح؟".

صاحت ليا وقالت: "اصعدي لغرفتك يا روز.. خذيها يا أمي أرجوك". لبت الطفلة أمر أمها وعادت إلى غرفتها مع جدتها.

استدارت ليا إلى رافاييل وقالت: "بينما أنت تعيش حياتك، كما تريد أنا كنت أربي ابنتنا نعم روز هي ابنتك بعد تلك الليلة وما حدث بيننا حملت بها وأنا أنتظر رسائل منك حتى تخبرني بعنوانك أو أي اتصال بك.. لم يكن هناك أي

حلقة وصل بيننا لم تعرف حتى بوجود ابنه لك".

كان يسمع ماتقوله وهو لا يصدق أبدا ما حدث ويحدث، كيف لم يرسل لها. وهي التي لم تجب.

قاطعها قائلا: "دقيقة.. دقيقة.. أنا الذي كنت أرسل لك وأنت لا تجيبين، وبعد أسابيع من الانتظار وصلتني رسالة منك تخبريني أن أنساك وأن لا أبحث عنك أو اتصل بك.. والآن تضعين اللوم عليَّ. وأعرف مثل أي غريب أن لي ابنة وعمرها على ما يبدو ثماني سنوات.. لقد كنت أحبك يا هذه.. كنت أعشقك كيف تعتقدين أني لا أريد أن تتواصلي معي؟".

جلست على الأريكة وهي لا تعرف الصدق من الكذب هل تصدقه وتكذب نفسها؟ لم تعد تعلم ماذا تفعل. نزلت أمها وبيدها صندوق صغير وضعته أمام ليا على الطاولة. قالت: "ما هذا يا أمي؟".

"هذا ماخبأه والدك عنك ظنا منه أنه يفعل هذا لصالحك".

فتحت ليا الصندوق.. كانت رسائل معنونة من رافاييل.. الكثير منها. رفعت عينيها وقالت: لماذا؟ كيف يفعل بي هذا؟

أجابت الأم: كان يعتقد أنك إذا بقيت على تواصل معه لن تحققي ما كان يخطط له.. وعندما علم أنك حامل. كان غاضبا جدا وأنت تعلمين الباقي، وما حدث ذلك اليوم، ولم أستطع أن أخبرك أي شيء حتى لتكرهي والدك وأن لا تتغير صورته في مخيلتك.

"اللعنة". قال رافاييل، "لقد حرمني من معرفة أبوتي كل هذه السنين. كيف كان بهذه الأنانية؟".

بدأت ليا بالبكاء.. لم تتحمل كل الحقائق التي اكتشفتها للتو. أخذت معطفها وخرجت إلى الخارج لم يعد المنزل يتحملها.

خرج خلفها بعد أن شعر أنها هدأت وقف بجانبها وقال: "إنها تشبهني".

"ماذا؟".

"روز.. تشبهني كثيرا".

"أجل.. تشبهك".

استدار إليها وقال: "أنا آسف يا ليا لقد مريت بكل هذا وأنا لم أكن موجودا بحياتك وخاصة بالقرب من روز".

تنهدت ليا وقالت: "هذا قدرنا.. ما الذي سنفعله؟ أتعلم لقد لمت نفسي كثيرا عندما توفي والدي.. والآن أشعر أني أريد أن يكون حيا حتى أواجهه بكل هذا".

"هذا ما لا نستطيع فعله مع الأسف".

وقفا لدقائق بصمت، لكن صوت روز أيقظهما من صمتهما فعادا إلى المنزل.. وهو متشوق جدا أن يتعرف إلى ابنته.

مرت بضعة أيام. كان قد أجل رافاييل عودته لأسبوع آخر. حتى يبقى لوقت أطول مع ابنته لن يعوضه أي شيء خسارة السنين التي ولت لكنه سيكون في حياتها منذ الآن ولن يبتعد أبدا مرة أخرى، لكن كان يجب أن يعود ليلة الميلاد لأمور تخص الشركة وكان قد حضر حقيبته ليسافر لكن وعد ابنته أن يعود.

في الأيام التي تلت وبعد انكشاف كل الحقائق بدا التقارب الذي فصلهم لسنوات يعود ببطء من جديد.. ذلك الحب الذي دفن لسنوات قرر أن يحفر

ليخرج إلى النور مجددا.

كانت المشاعر ما زالت نفسها لم تتغير لكن الخوف من عدم النجاح هو ما كان يعيدهم خطوة إلى الوراء.

كانت روز وليا تقفان في المطار تودعان رافاييل وهو يوعد ابنته أنه عائد بعد وقت قصير جدا.. ودعاه وعادت ليا وابنتها إلى المنزل. كانت روز تحتضن والدتها وهن جالسات على الأريكة تسمعن لأغاني الميلاد فقالت روز: "هل يا ترى ما حدث لنا.. كانت معجزة الميلاد يا أمي".

أجابت ليا: "أعتقد هذا.. ما زال زمن المعجزات قائما وأنا أؤمن بذلك".

وبينما هنا يتحدثان، سمعا طرقا على الباب.. ذهبت روز لتفتح فتفاجأ بوالدها ارتمت إلى أحضانه وليا كانت أكثر دهشة منها. قال لها: "ألن تدعوني للدخول؟".

أجابت ليا: "بالطبع.. تفضل لكن ما معنى هذا؟ لِمَ لم ترحل؟".

قال لها: "لقد أيقنت أني عندما رحلت في المرة الأولى خسرت الكثير لكني لن أفعلها مجددا.. لن أترككم للحظة واحدة بعد هذا اليوم إذا كنتن موافقات".

"بالطبع". أجابت روز.

قال هو: "وماذا عنك يا ليا؟ هل ما زلت بإحدى زوايا قلبك يا ترى".

أمسكت ليا يده وقالت: "ما زلت تملك قلبي كله".

سحبها إليه.. وضع قبلة على شفتيها وعاد ليحتضن ابنته وحبيبته إلى صدره، وكأنه يريد أن يسجنهما داخل صدره

# القصة السابعة

## الابنة الفاضلة "قصة حقيقية"

تقف أمام باب منزلها.. تطلع إليه بعين الاشتياق والحزن والفرح معا. تطلع إلى جدرانه التي فقدت لونها على مر الزمان... تخطو بضع خطوات أخرى فدخل من الباب الكبير.. تتجمع دمعات تترقرق في عينيها تجول بنظرها وكأنها تركته لسنين.. تتذكر بعض ضحكاتهم ودموعهم.. تتذكر لمتهم على مائدة الطعام وبعض من غضبهم الذي كان يزول بحضن واحد أو بقبلة على الخدود لكن تعود وتتذكر أن من ضحت من أجلهم لم يتذكروا التضحية... ليقاطع أفكارها هو حين يمسك من يدها وعلي وجهه ابتسامة حنونة ويقول: أهلا وسهلا بك ثانية في منزلك.

ابتسمت بحرقة في قلبها رغم أنها كان يجب أن تكون في غاية السعادة، لكن هناك بعض الأحداث التي تصيبنا فنفقد بعدها طعم الشعور بالسعادة بسبب المر الذي تجرعناه منها.

أجابت نادين بصوت تتقطع فيه الحروف وقالت: "كنت قد آمنت أني فقدت البيت إلى الأبد. كنت أظن أني سأشاهده فقط من بعيد حين أمر من هنا، أو أنني سأكتفي بقلب ألبوم الصور حتى أراه من خلاله..لكني لم أعتقد قط أن الله لا يضيع حق أحد.

أجابها وقال: "ولأن الله كبير ويعرف قدرك جيدا أرسلني لك وأهداني إياك. فمن يأتمن على حجر بشكل منزل يأتمن على قلب ينبض بالحياة سأعد فنجانين من القهوة لتريحي أعصابك قليلا وتجولي في المنزل أنه منزلك على أي حال".

قالت: لا تتعب نفسك أنا سأعد القهوة لك.

"لا.. هذه المرة القهوة عليَّ..".

تركها ودخل يتخبط في المطبخ يبحث عن الدولة والفنجان والقهوة وهي سمعت قوله وقامت تدور في المنزل كأنها لم تره منذ زمن... وطاردتها الذكريات من يوم فقدانهم أهم ركن في حياتها فيتملكها الشعور بالوحدة والضياع. الشعور بالوحشة والفراغ.. الشعور بالفقد المؤلم الذي لا يشابهه شعور.. كل الأحاسيس قد تترجم ويفهم معناها إلا فقدان الأم لا يستوعبه عقل ولا يضمه أي معنى في كتاب.

يفقد الإنسان أمه فيفقد معها توازنه ويختل في داخله الحزن والفرح عندما يفقد الإنسان أمه يفقد معنى الحياة لأن في وجودها الحياة.

عندما يفقد المرء أمه تتوقف عندها كل العبارات والكلمات نفقد الطمأنينة والسلام. نفقد الحب والحنان الذي منبعه الأم.

شعور متضارب يتشكل في داخل كل شخص ذاق أو يذوق طعم فقدان أحد الوالدين وخاصة لو كان الأولاد صغارًا ولا يبقى لديهم سوى ذراع واحدة تضمهم وهي ذراع الأب بعد أن كان للعائلة ذراعان.. نفقد فيها أحدهم ليختل توازن الأسرة، لكن في هذه الحكاية كانت الحكاية مختلفة.

نادين الأخت الكبرى.. الأم الثانية.. فتاة في السادسة عشرة من عمرا لما توفت أمها بعد مصارعة مع مرض السرطان تاركة خلفها ثلاث بنات أصغرهن ١٢ عاما وزوجا محبا تكسر قلبه وثقل حمله بعد أن فقد زوجته وشريكة عمره وحبيبته.

كان ل أسعد ثلاث بنات؛ نادين البكر، لجين الوسطى، ريما الصغيرة المدللة. تركتهم والدتهم وكان فراقها صعب جدا عليهم.. لم يكن بيد الوالد سوى أن يهتم ببناته بشكل أكبر وأكثر حرصا. ورغم الكثير من الاقتراحات التي طالبته بأن يتزوج من أخرى لترعاه وترعى فتياته لكنه لم يرضَ أن يجلب زوجة تكون أمًّا لبناته.. واعتمد على نادين في تربية أخواتها والاهتمام بهن في المنزل. هو كان رجلًا لا يملك من الدنيا سوى بيت ورثه عن والده وبدلة المحاماة التي يرتديها في المحاكم.

في بادئ الأمر كانت المصيبة التي وقعت كالصاعقة عليهم ثقيلة جدا، لكن بمرور الأيام بدأ الحزن يهدأ والحياة تسير كما هو مقدر لها. واستمرت الفتيات من حيث توقفن إلا نادين. حملت فوق كاهلها عبء أخواتها البنات ومتطلبات المنزل، وراحة والدها بالرغم من أنه لم يكن يطلب منها شيئا لأنه لم يكن يريدها أن تترك حياتها وتلتهي بهم.. بعكس أخواتها البنات الأصغر منها فبالرغم من أن ما حدث أثر في الجميع إلا أن تأثيره كان بحجم متفاوت بينهن وخاصة ريما فكانت فتاة غير مبالية كثيرة التطلب.. مراهقة لا تكف عن خلق المشاكل.. أما لجين. الفتاة الحالمة التي لا تهتم إلا بجمالها وشياكاتها ومظهرها الخارجي الذي كان مصدر قلق لوالدهم الذي كان يعمل ليل نهار من أجل أن يوفر لهن الحياة

التي تحلم بها كل واحدة، إلا نادين التي نسيت نفسها بين كل هذه الأحوال.

ومرت السنوات دخلت فيها لجين الجامعة حين كانت لا تزال نادين تدرس في سنتها الثالثة لأنها كانت تدرس بشكل متقطع بسبب عملها الذي كانت تعمل به لتساعد والدها في المصاريف بغد أن زادت أكثر كما هو واضح.

عادت نادين ذات يوم إلى المنزل من عملها فهي تعمل منذ سنتين في محل للزهور في منطقه راقية جدا من البلد وأصبح للمحل زبائن أكثر بسبب تعاملها الراقي والجميل وذوقها العالي في اختيار وتنسيق الزهور فهي بالأساس تدرس التصميم وتتمنى لو أنها في يوم ما تصبح مصممة أزياء ترتدي من تحت يديها المشاهير كانت قد جمعت لوقت طويل النقود حتى تشتري بها ماكينة للخياطة وتخيط عليها ملابس لها ولأختيها منها تزاول حلمها وتحققه ومنها أن توفر بعض النقود فوالدها رجل ليس بالعمر الذي يسمح له بالعمل لساعات طويلة كان قد عبر الستين فقد تزوج بالأصل متأخرا وأنجب ابنته الأولى وهو في الأربعين من العمر.

دخلت إلى غرفتها فوجدت لجين ترتدي الفستان الذي خاطته لنفسها حتى ترتديه في عرس صديقتها فتوقفت وتفاجئه وكانت قد نبهتهم أن لا يلمسوا الفستان لأنه لها.. استدارت لجين لما رأت نادين تقف أمام غرفتها وقالت: انظري يا أختي.. كم يليق بي لونه يعكس لون عيني..

حزنت نادين وقالت: "هذا الفستان لي.. لقد تعبت جدا حتى أكملت خياطته في الموعد المقرر أرجوك انزعيه واتركيه في غرفتي سأرتديه الليلة بعرس نهال".

عقدت لجين حاجبيها بتمرد وقالت: "ماذا فعلت أنا.. كنت أقيسه فقط... خذيه لا أريده وكأنك ترتدين فستان الأميرة ديانا".

نزعته بسرعة ورمته على سريرها بلا مبالاة وخرجت من الغرفة بتكبر واضح على وجهها شعرت نادين بالأسى فأخواتها تعاملنها كأنها خادمة لهن أو أنها أقل قيمة منهن ولكن كل هذا بسببها هي من جعلتهم يشعرون هكذا كانت تقدمهم على نفسها حتى أصبحوا على هذه الشاكلة ولم يعودوا يحترمونها كأخت كبيرة لهن.

أغلقت الباب خلفها تنفست بهدوء. أخذت الفستان ووضعته على جسدها لتراه عليها.. ابتسمت ودخلت إلى الحمام لتستحم ثم تتحضر من أجل عرس نهال.

لما خرجت كانت هناك جلبة في الصالة وحديث بين ريما ولجين على أمور لم تكن حتى تفكر فيها هي.. كانت الاثنتين تتشاجران من أجل علبة مستحضرات للتجميل.. وصوتهما يرتفع كثيرا.. في تلك اللحظة يدخل والدهما ليسكتا الاثنتين.. فيقول: "ماذا بكما صوتكما؟ قد وصل لنهاية الشارع ما الذي يحدث هنا؟ ألا تهدآن أنتما الاثنتين؟ كل يوم بهذا الحال".

كانت سترد لجين لكن والدها أسكتها.. نده على نادين فاتت مسرعة أعطاها ما يحمله بيده من احتياجات للمنزل وأخذت منه لجين حقيبة عمله وقضاياه، وجلبت ريما بسرعة كأس ماء بارد له جلس هو على الأريكة يريح جسده المتعب.. فاتت نادين وجلست بجانبه قائلة: "متى ستترك العمل يا أبي؟ أنت متعب جدا، وتحتاج للراحة".

ابتسم لها وقال: "أنا بخير لا تقلقي.. لدي بعض الطاقة التي أستطيع فيها أن أقاوم هذه الحياة أكثر".

ثم التفت إلى الأختين وقال: "الآن تحدثوا.. ما الذي يحصل بينكما؟".

بدأت لجين بالشرح ثم ريما.. كانت نادين غير مقتنعة بما تسمع من حديث تركتهم وعادت إلى غرفتها لتحضر نفسها من أجل العرس وبعد نصف ساعة من محادثات لا أهميه لها. أتت الأختين وقد حنت رأسيهما بعد أن وبخهما الأب.. وأرسلهما إلى غرفتهما كانت نادين ترتدي حلقا في أدنها لما التفتت إلى لجين وقالت: "هل حل الأمر؟".

أجابت لجين: "دائمًا يوبخنا ونتحمل الكثير من الكلام ثم نقارن بك وفي كل مرة يقول يا ليتنا لو كنا نشبهك".

ضحكت نادين وقالت: "لا، يكفي نادين واحدة.. من سيختلق المشاكل ويحرق الجو هنا؟".

أخذت حقيبتها وهي تعتزم للخروج، وقالت لأختيها: "اهتما بأبي حالما أعود.. لا أريد أي مشاكل.. هل فهمتما؟ ولو حدث شيء اتصلا فورا".

قالت ريما: "ستخرج سندريلا إلى الحفل.. هل يا ترى ستعودين بأمير بيدك". سمعت أن زوج نهال من الطبقة الثرية.

قالت نادين وهي تضع قبلة على خد: "لن أتزوج قبل أن أزوجكن.. والآن عمتما مساء تعقلا ولتتعبا أبي بأموركما..ويا حبذا لو تدرسن قليلا أفضل ولو حدث شيء ما اتصلا بي فورا".

خرجت من غرفتها وذهبت لعند والدها تخبره أن العشاء في الثلاجة لا

يحتاج إلى التسخين ولن تتأخر بالعودة.

في حفلة العرس كانت الأجواء لطيفة والناس كثير الطعام فاخر والموسيقا هادئة مثل حفلات الناس ذوي الطبقة العالية والباشوات كانت نادين تبحث عن عائلة نهال لتبارك لهم. لما اصطدمت بالخطأ بأحدهم وقد تسببت بطلق العصير على بدلته السوداء رفعت عينيها بإحراج جعل من وجنتيها تتلون بالاحمرار المنعكس من خجلها وقالت معتذرة: "آسفة.. آسفة جدا.. كان خطأي.. لم أرك وأنا أمشي".

ابتسم الشاب وهو ينظف السائل من بدلته وقال باحترام: "لا عليك لم يحدث شيء.. كما أن بدلتي سوداء لا أحد سيلاحظ الأمر. لا تهتمي أرجوك".

كان هو غارقا في جمالها فعيناه لم ترَ مثل هذا الجمال قط.. فتاة بعينين خضراواين.. شعرها النمري الطويل بنهايات لولبية.. شفتاها كلون دم الغزال.. تنده لكل رجل وتقول قبلني عنقها الطويلة وعلي خدها شامة سوداء كانت كإحدى أميرات دزني بل تفوقهن جمالا.

أما هي فكانت مضطربة بما حصل لما رأتها نهال فاتت لتسلم عليها.. قائلة: "نادين.. لقد أتيت.. كم أنا سعيدة بذلك؟ وأراك تعرفت بكريم".

ابتسمت نادين، وقالت: "لقد كان تعارفا كارثيا.. آسفة جدا مرة أخرى يا سيد كريم".

قال لها: "أرجوك لا تتأسفي.. ما حدث كان أمرا عاديا يحدث أغلب الأوقات ولا تناديني بسيد.. فقط كريم.. وسررت بمعرفتك جدا".

أومأت برأسها، ثم انضمت إلى ليلى.. أخذتا إياها من يدها لتريها الطاولة

التي ستجلس عليها مع عائلتها. لكن عيني كريم لم تتركاها وشأنها بل تبعتاها في كل مكان وتعمد أن يحدثها في كل فرصة حتى إن نهال كانت مسرورة جدا من هذا الاهتمام لأن كريم هو الصديق المقرب من زوجها وتعرفه حق المعرفة وهكذا كان معًا حتى انتهاء العرس.

طلب منها أن يقلها لكنها رفضت وأصر أن يلتقيها ولو لشرب كوب من القهوة.. وافقت بعد إلحاح منه وتبادلا أرقام الهواتف ووعدها أنه سيتصل بها.

ثم عادت إلى المنزل وهي تفكر بكريم والذي يريده منها.. لم تجرب الحب من قبل ولم تعشق قط من قبل.. فهل يا ترى الذي حدث هو بداية لقصة ما.

*****

مرت بضعة أيام ونسيت نادين تماما أمر كريم بين اهتمامها بالجامعة والعمل والمنزل وأخواتها ..كان بعد الظهر لما رن هاتفها رقم غريب.. أجابت: "الو".

"مرحبا هل أنت نادين أسعد".

أجابت: "نعم.. من معي؟".

"أنا أتصل من المستشفى العام.. والدك السيد أسعد نقل قبل قليل إلى الطوارئ وطلب مني الاتصال بك".

وقع الهاتف من يدها والآنسة تنادي من الجهة الأخرى من الهاتف ونادين لا تجيب.. شعرت بشيء يصوب إلى صدرها لا تريد أن تتكرر المأساة مرة أخرى لم تستطع أن تصدق ما سمعته للتو انقطع الخط ثواني مرت عليها كأنها ساعات منقطعة عن العالم.. صحت من غيبوبتها أخذت هاتفها وأوقفت أول تكسي أعطته العنوان ليوصلها إلى والدها.

وصلت وسألت الاستقبال فأمدوها بالمعلومات التي تحتاج.. ذهبت إلى الغرفة التي يرقد فيها.. الدهاء فتفاجأن به؛ كان لونه أصفر.. متعب.ز غارق في نوم عميق.. تقربت منه أمسكت بيده وبدأت بالبكاء حتى صحي على صوتها.. رتب بيده على رأسها ولما رأته قالت: "ما الذي حصل لك يا أبي.. كيف حدث هذا؟".

أجاب الأب: "يبدو أن العمر تغلب علي في نهاية الأمر وجسدي أعطى كلمته الأخيرة".

وبينما هما يتحدثان أتى الطبيب.. أخبرها أن والدها يعاني من قصور في القلب ولا يتحمل الإجهاد بعد اليوم.. ويجب أن يرتاح ولا يعمل بتاتا وإلا سيخسرونه قريبا.

أكدت نادين للطبيب أنها ستعتني بوالدها وتنفذ كل ما قاله له.. بقي يومين آخرين وبناته يلتفون حوله حزينات بما أصاب والدهن.

بعد أيام أخرجوا والدهم.. كانت الأسابيع الأولى هادئة نوعا ما.. حتى بدأت لجين بالبحث عن عمل لكن سرعان ما عادت الأمور على حالها.. ولكن هذه حالهم دائما هكذا كانت تفكر نادين.

بينما كانوا على العشاء ذات مساء.. رن هاتفها ولما نظرت إليه استغربت.. كان كريم من يتصل.. أسابيع مرت وكانت قد نسيته تماما بل اعتقدت أنه نسيها أيضا.. نهضت من المائدة وأجابت: الو.

"نادين هذه أنت؟؟".

"أهلا كريم.. ما الذي فكرك بي".

أجاب كريم معتذرا: أنا حقا أسف.. كنت سأتصل بك بوقت أقرب لكن العمل كان كثيرا وكنت مشغولا جدا.. حتى إني سافرت لثلاثة أسابيع خارج البلد ولم أعد إلا البارحة.. كنت سأتصل بك لكن ترددت خشية أن ترفضي مكالمتي لكني جربت حظي.

أجابت هي: "بصراحة وأنا كنت مشغولة جدا.. حتى لو كنت كلمتني ما كنت استطعت أن أحدثك.

قال لها: إذن نبدأ من جديد.. إذا لم يكن لديك مانع.. فإني متشوق جدا للتعرف إليك.

أجابت وهناك ابتسامة رسمت على شفتيها: "لماذا؟".

"لأنني أول مرة أرى ملاك يعيش على الأرض بيننا".

لم تجبه لأن ما قاله للتو لها جعلها تختزل كل كلامها بالصمت. وفجأة دق قلبها وشعرت بشعور غريب لم تحس به من قبل... شعور جميل لطيف وهي تستمع إليه يحدثها حتى اتفقا على موعد للقاء.

تكررت اللقاءات القصيرة بسبب انشغالاتها الدائمة.. لكنها كانت متحفظة جدا، كان اهتمامها به يأتي بالمركز الثالث تقريبا.

ثم انتهى العام الدراسي بمفاجأة غير متوقعة.. فقد تقدم لخطبة لجين زميلها في الجامعة ووافق الأب لأنهما كان يحبان بعض وفرحت نادين كثيرا لأنها ستطمئن على أختها.. وهي لا تزال كما هي.. لكنها تخرجت في الجامعة ودخلت ريما سنتها الأولى وكلما كان كريم يفاتحها بأمر الزواج كانت ترفض بحجة أن تتزوج أختها الصغيرة أولا.

أحس كريم بأنها لا تعتبره بمرتبة مهمة في حياته وكان هذا يحزنه.. حتى إنها لم تعرفه إلى أختيها أو والدها أما هي فلم تكن تريد أن تتأثر حياتها بشيء حاليا وكانت تعتقد أنها ستقصر على عائلتها لو اهتمت بنفسها أكثر.

وهذا كان السبب في فراق نادين عن كريم بعد علاقة حب لسنتين.. خرجت منها نادين مكسورة القلب، وكريم محطم الفؤاد.

ومرت السنوات بعدها.. ووالد نادين تسوء حالته.. وكانت للتو قد حصلت على عمل بإحدى دور الأزياء بعد أن ربحت جائزة أفضل مصمم وكانت غارقة في عملها حتى نسيت نفسها تماما.. ثم جاء يوم آخر سعيد وتزوجت أختها الصغيرة وآمنت عليهما ولم يتبقَ سواهما هي ووالدها في المنزل..فكانت تقضي معظم الوقت تعمل والوقت الآخر المتبقي تهتم بوالدها.. لم ترضَ أن تتركه رغم طلبات الزواج التي انهالت عليها طوال السنين لأنها لم تستطع أن تترك والدها المريض وحده فقد كانت هي الوحيدة التي تهتم به.. أما أختاها فكانتا تزورانهم كل فترة مثل أي ضيوف عاديين.. فأخذتهم الحياة لدوامتها.. لكن نادين بقيت كما هي الابنة الفاضلة المضحية.

ولا تزال نهال صديقتها المقربة التي تعرف كل أسرارها وأوجاع قلبها.. تعلم جيدا أنها لن تعشق سوى كريم ولن تترك والدها أبدا.

لكن والدها تركها وانتقل إلى جوار ربه ذاهبا ليلتقي زوجته تاركا نادين وحدها بلا أب ولا أم.. ولا سند تستند عليه ولا نفس يشاركها المنزل.

انتهى بها الحال وحيدة داخل جدران مليئة بالذكريات.. سمعت خطواته قادمة من خلفها استدارت إليه بابتسامة ممتنة كان يحمل فنجانين من القهوة في

صينية صغيرة بجانبها كأسين من الماء البارد وضعتهما على الطاولة أمامها..وقال: أروع فنجانين حضرتهما في حياتي أتمنى أن يكون على الأقل قابلا للشرب".

ضحكت هي رفعت الفنجان إلى شفتيها تذوقته.. وقالت: "بصراحة لم أذق هكذا قهوة في حياتي.. هل صحيح أنك أول مرة تحضرها؟".

قال: "صدقيني هذه أول مرة لكني حضرتها بحب كبير لهذا بدت طيبة".

تقربت منه واتكأت على صدره.. أخذها إليه محتضنا إياها يتلمس شعرها تارة ويقبل جبينها تارة أخرى.. إن أحضانه ملاذها ويديه موطنها وشفتيه أمنياتها، أما قلبه فكان منزلها.

المنزل ليس فقط الجدران والغرف أو النوافذ والأبواب المغلقة.. المنزل هو الذكريات والأمان والحب الذي يبنى عليه أساس كل منزل.

العائلة ليست أب وأم وأولاد، بل هي روابط وعاطفة واحترام.. لو فقدت إحدى ركائزها تنهار.

حين وقعت عيناها على برواز كان يحيط بصورة تجمعها هي وأختيها ووالديها قبل أن تفقدهما وقبل أن تكبر الأختان وتبتعدان؛ فالحب كاد يظفر من الصورة وكأن من كانوا في هذه الصورة ليس نفسهم الآن.

حينها تذكرت ذلك اليوم الذي فقدت فيه نادين آخر ما كان يربطها بهذه العائلة التي كانت يوما ما عائلة حين أتتها لجين وريما يطالبنه بحصتهما من إرثهما من والدهما في المنزل لأنهما تحتاجان للمال من أجل عائلتهما.

تذكرت كيف أتين إليها ذات يوم وكانت قد طال غيابهن كثيرا... اعتقد أنهن اشتقن لها وكانت سعيدة جدا لرؤيتهن لكنها تفاجأت بأنهن أتين وحدهن

دون أطفالهن وأزواجهن... قالت: "لمَ أتيتن وحدكن وأين الصغار؟ اشتاقت خالتهم لرؤيتهم".

نظرت الواحدة إلى الأخرى وقالت لجين: "لقد أتينا من أجل أمر مهم جدا نود أن نخبرك به".

ابتسمت نادين وقالت: "حدثوني بما تشاؤون بعد القهوة ساعدها لكم.. ثم نتحدث قليلا اشتقت حتى لشجاركم.. لقد أطلتما الغياب كثيرا".

قالت ريما وأجابت على وجه السرعة: "لا.. لا داعي لن يطول بقاؤنا.. استمعي لنا".

عادت وجلست نادين مرة أخرى، لكن شعورًا غريبًا وقع في صدرها حتى أحست أن معدتها تعكرت وقالت: "خير إن شاء الله.. ماذا هناك؟".

بلعت ريقها لجين قبل أن تقول: "لقد قررنا أن نبيع المنزل من أجل تقسيم الإرث.. نحتاج إلى المال من أجل عائلتنا".

بحلقت نادين فيهما وهي غير مصدقة بما يقولان.. كيف لهن أن يفكران هكذا وأين ستبقى هي؟ ألم يفكرا أنها ما زالت تعيش فيه.. قالت: "لكنني ما زلت هنا.. كيف تفرطون به وتبيعونه.. إنه ذكرى والدينا وذكرياتنا".

قالت ريما: "لكننا لم نعد نعش به ونحتاج إلى المال الذي سيأتي منه وأنت تستطيعين تدبير أمرك.. تعملين وتؤجرين منزلا أصغر.. ما الذي ستفعلين بهذا البيت الكبير؟".

ابتسمت بحزن يشعل صدرها وقالت: "لا أدري بما أجيبكن، لكني لا أريد بيع المنزل".

نهضت لجين وقالت بغضب: "لمَ أنت أنانية هكذا؟ ليس لديك عائلة أو أطفال.. ليس لديك أحد ونحن نحتاج للمال.. ألا ترين؟ لقد صبرنا كثيرا من أجلك وأنت تعيشين وحدك هنا.. تستطيعين تأجير منزل والعيش أيضا ما الذي تفعلين بالمال الذي تجنيه؟".

كان وقع كلمات لجين مثل خناجر تغزو قلبها واحدة تلو الأخرى.. عن أي أنانية تتحدث وهي تركت حياتها من أجلهم حتى إنها ضحت بحب عمرها من أجلهم... أجابت والعبرة تخنقها: "أنانية.. أنا أنانية يا أختي من الذي ضحى بنفسه وبكل وقته من أجلكم.. كنت لكم أمًّا في حين متت أمنا، وأختًا تستندون عليها وصديقه تحتاجون إليها.. والآن تريدون أن تخرجوني من بيت أبي من أجل حفنة نقود".

قالت ريما معقبة: "لكن حفنة النقود هذه نحن نحتاج إليها.. كما أنه ليس منزل أبيك فقط وهو منزلنا أيضا ولنا الحق فيه كما أنت".

ثم أكملت لجين وقالت: "لم نطلب منك أن تترك حياتك لأجلنا.. أنت لم يكن لديك حياة أصلا ولعبت دور الأم حتى تملأين كل الفراغات".

هذه كانت الضربة القاضية لها فبعد هذا الكلام لم تستطع تمالك نفسها وقامت بطردهم خارج المنزل وهن أعطينها أسبوعا لتفكر بالأمر أو ينفذن ما قلن.. انصدمت مما آلت إليه الأمور وبما طلبته منها الأختان.. ما الذي ستفعله وكيف تفرط في هذا المنزل وهو ما تبقى لها من والدها ووالدتها... كيف ستفرط بسنين عمرها التي انقضت بين هذه الزوايا؟

لم تكن صدمتها فقط في طلبهما للإرث، بل في أنانيتهما التي فاقت كل شيء..

وعدم تفكيرهما بأختهم الكبيرة التي ليس لديها مكان تأوي إليه سوى هذا المنزل ليس لديها سند مثلما لديهن.. لم يفكرن للحظة بماذا ستفعله لو فعلا بيع المنزل وتقاسمتا الورث وأين ستذهب هي كل همهن كانت مصلحتهن فقط دائما ما كانت مصلحتهن تأتي بالمرتبة الأولى عليها دائما.

لم تصدق قط ما يحدث وكيف تتعامل الأختان. لم تعد تصدق فعلا أنهن أخواتها بالفعل وإنما كأنا قد ولدا من نفس الأم والأب.. بل حتى إنها هي من ربتهن وتعبت عليهن كأنها أمهن.

لم يكن لديها سوى نهال لتشكي لها أمرها وتساعدها في إيجاد حل لمشكلتها... وما كان من نهال إلا أن تخبرها أن تصبر فقد يأتي الحل من عند الله. أو أنها تأخذ حصتها وتؤجر بها شقة صغيرة ومع عملها تستطيع أن تعيش بسهولة.

لم يكن هم نادين العمل أو النقود ولم يكن لديها مشكلة في إيجاد مكان لتبيت فيه بل المشكلة كانت في أنها لا تريد البيع ولا تريد الخروج من المنزل..

مر الأسبوع وكانت نادين تعيش مثل ضائعة تجوب في هذا العالم.. لم تركز في عملها حيدا فطلبت إجازة مرضية.. لم تأكل أو تشرب مثل خلق الله كل ما كانت تضعه في فمها تستطعم المرارة فيه لكن نهال لم تتركها وكانت إلى جانبها تواسيها.. مر الأسبوع وفي اليوم الثامن توقف رجل أمام باب المنزل.. رن جرس الباب ففتحت.. كان هناك يقف الرجل ببدلة رسمية يحمل كومة أوراق بيده عرف عن نفسه بأنه دلال من البنك من أجل تقيم البيت حتى يباع كادت تطرده لكنها فكرت أن ليس لديه ذنب.. سمحت له بالدخول من أجل معاينة المنزل

واتصلت هي بنهال تخبرها.. وما كان من صديقتها سوى المواساة.

بعد بضعة أيام جاءها اتصال من مكتب العقارات الذي تولى أمر بيع المنزل ووافقت على لقائه... فكرت في خلال الأسبوع كثيرا ووصلت إلى استنتاج أنها لن تستطيع أن تقف بوجه أختيها من أجل المنزل.. ليس لأنها لا تستطيع بل لأنها لحد الآن تعتبرهن أختيها.. ومن أجل طيبة قلبها وافقت على البيع.. بشرط أن تؤجر المنزل ستة شهور حتى ترى منزلا آخر.. ووافق المشتري المجهول مع صاحب مكتب بيع العقارات.

وذهبت مثلما ذهبت أخواتها وتقابلن عند صاحب مكتب العقارات وكان قد أتى للمنزل عرض مغرٍ جدا بعد أن عرض للبيع بيوم واحد فقط... فرحت الأختان، لكن نادين كان قلبها يتقطع بألم لم تتحدث معهن مهما حاولن التحدث معها وقعت على الأوراق التي تحتاج إلى توقيع ثم خرجت تاركة إياهن يحتفلن بهذا الانتصار.

*****

كان الوقت مساء لما نده كريم على نادين ليخبرها أنه ينتظرها في السيارة حاملة بيده حقيبة صغيرة كانت قد حضرتها له نادين أخذها بيده وقال: "نادين.. هيا استعجلي أنا ذاهب لأشغل السيارة وأمي تنتظرنا على العشاء لقد اتصلت للتو.. أخذت الحقيبة البنية معي وأنت اجلبي الأخرى".

صاحت بصوتها وقالت: "تمام... أنا آتية خلفك خمس دقائق فقط".

عادت لتأخذ ماجاءت من أجله بالرغم من أن هذا المنزل لم يتركها ولم تتركه/ لكنها في آخر اليوم غادرته، لكنها احتفظت به أيضا من أجل كل ذكرياتها

حتى المؤلمة أيضا.

ابتسمت لنفسها في المرآة المعلقة في غرفتها.كم هي صدفة جميلة ترتدي نفس الفستان الذي ترتديه الآن قبل ثلاثة أشهر فقط حينما كانت تقف هكذا أيضا وسمعت طرق الباب نزلت لترى من الطارق وتفاجأ بحب حياتها واقفا أمام باب منزلها.

شلت أطرافها فبعد سنين عديدة تراه الآن واقفا أمامها ولم يتغير به أي شيء.. ابتسم وقال: "أليس هنا مرحبا مثلا؟".

ابتسمت وتوترت وأجابت: "بلا.. أهلا وسهلا.. لكن..."".

قاطعها وقال: "هل أستطيع الدخول؟".

قالت وهي تفسح المجال له: "بالطبع تفضل".

دخل إلى المنزل وهو يجول بعينيه فيه وقال: "كم تمنيت أن أزورك هنا منذ سنوات.. تذكرين؟".

قالت: "طبعا أذكر. وأنت ما زلت تذكر".

"وهل ينسى المرء حب حياته... هل نسيتني؟".

قالت: "لا.. ولا حتى للحظة واحدة".

أجاب مبتسما: "وأنا لم أنسَ بل عشت كل هذه السنين القطيعة بيننا على ذكرياتنا معا.. ولكن بعد الآن سيتغير الوضع".

قالت باستغراب: "لماذا؟".

"لأني يا نادين عدت ولن أعيش وحدي كما يبدو أنك عشت وحدك وما زلت.. أخبرتني نهال كل شيء وأنا هنا الآن ولن أخرج قبل موافقتك بالزواج بي".

دهشت.. ابتسمت.. فرحت كل المشاعر التي كانت تحزنها طردها للتو كريم بقوله هذا لم تستطع حتى الإجابة وأكمل هو قائلا: "هل أعتبر هذا الصمت قبولا أم العكس أم أنك تفكرين لأننا لا نحتاج إلى التفكير من أجل ارتباطنا نحن مرتبطين منذ سنوات وسنكمل من حيث توقفنا".

نهض كريم ومد يده إليه وقال: "هل أنت موافقة.. إذا كنت موافقة سآخذك الآن وأعرفك إلى أمي".

لم تفكر كثيرا لم تفكر قط.. مَدَّت له يدها... وكانت هذه اليد الوحيدة التي مدت لها.. وتمسكت بها بقوة وبعد شهر بالضبط تزوجا وكان زواجهما يحكي عنه في كل مكان دعت أخواتها مثل أي غريب كان قد حضر العرس.

أخذها بعدها إلى شهر عسل ليعوضها ولو لجزء صغير مما لم تعشه، ثم عادا وكانت سعيدة جدا معه كل السنين التي تفارقوا بها محيت في ليلة واحدة.. وكأنهم لم يفترقوا قط.

وتفاجأت به ظهر اليوم لما اتصل بها وأخبرها أن لدية مفاجأة لها وأخبرها أنه سيمر عليها ليأخذها كي ترى مفاجأتها... استعدت بفضول يغمرها وخرجت معه وهي تتساءل عن المفاجئة وهو أصر أن لا يتكلم حتى يصل إلى مكان محدد، وكانت المفاجأة لما وقفت السيارة أمام منزل والدها القديم فتغيرت تقاسيم وجهها وأمتلأ الحزن قلبها وعينيها وقالت: "لمَ أتيت هنا؟".

أخرج من حقيبة السيارة علبة وأعطاها إياها وقال: "افتحي العلبة".

أخذتها... فتحت وجدت مفاتيح المنزل بنفس الميدالية القديمة لم يتغير شيء نظرت إليه وقالت: "إنها مفاتيح منزل أبي".

أجاب: "هذه مفاتيح منزلك أنت".

قالت: كيف؟".

أجاب: "إنه منزلك أنت.. منذ أول مرة بيع هذا المنزل كان لك".

أجابت والتساؤل يظهر على عينيها قبل لسانها: "كيف يعني؟ لم أفهم".

أخرج ورقة من جيبه وفتحها وقال: "انظري.. اسمك موجود على عقد الشراء لي أحد آخر".

أخذت الورقة غير مصدقة وهي تقرأ والدموع تقع الواحدة تلو الأخرى.. احتضنته بشدة وقبلته عدة مرات.. ثم قالت: "كيف..كيف فعلت كل هذا؟ أنا أحلم يا ألله ماذا فعلت لأستحقك؟".

أجاب وقال: "نهال كانت تخبرني كل شيء وخاصة آخر فترة ولم أستطع الوقوف دون فعل أي شيء.. فاشتريت المنزل لك ثم ظهرت أمامك مرة أخرى كنت واثقًا أننا سنكون لبعض لأن حبنا كان مختلفا جدا.. أما ما الذي فعلته لتستحقيني، فقد فعلت الكثير لكن أنا من أستحقك لا أنت من تحافظ على عائلة بأكملها وبيت من حجر ستحافظ على حب رجل طوال العمر.. وأنا فخور لأنك زوجتي والآن هل تريدين الدخول إلى منزلك".

ابتسمت له وفتحت باب السيارة ونزلت.. والآن تفتح الباب مرة أخرى وتصعد بجانبه لتكمل حياتها مع رجل يستحقها.. أمسك بيدها قبلها وقال: "أحبك يا نادين". أجابت: "وأنا أيضا".

((سئل أحد العرب "بأي شيء يعرف وفاء الرجل دون تجربة واختبار"، قال "بحنينه إلى أوطانه، وتلهفه على ما مضى من زمانه)). مقتبس.

# القصة الثامنة

## القلب أعمى "قصة حقيقية"

"إلا تأتيك لحظات يقطر قلبك ألماً لشيء صغير تذكرته كان بيننا؟ وكيف أتوقع ذلك منك وأنت قطعة من الجحود، فامرح كثيراً الآن، فالقدر يخفي لك الكثير من الألم".

مقتبس

*****

ربيع عام ١٩٨٧

تحتضن كراساتها إلى صدرها. مرتدية زي الجامعة.. آنذاك كان أزرق غامقًا، وتحته قميص أبي، أنيق لكن محترم يليق بفتاة جامعية في مرحلتها الأخيرة تدرس علم الأحياء، بجانبها صديقتها تنتظر نزول زميلهن لينظم إليهن بعد انتهائه من امتحانات نصف السنة الدراسية.. لم يتبقَ إلا أشهر قليلة ويحتفلون بالتخرج، لكن كبقية الناس كانوا يعانون كثيرا وضغط الأوضاع الصعبة عليهم.. والأخبار الحزينة التي يستمعون لها في الإذاعة والتلفزيون تجهض كل الأفراح التي كان يجب أن تولد. الحرب العراقية الإيرانية ما زالت قائمة وما زالت تحصد الكثير من أرواح العراقيين البسلاء.

دقائق مضت. ورأت سما من بعيد أن إحسان قادم باتجاهها ارتسمت على شفتيها ابتسامة وهي تتساءل كيف أدى امتحانه يا ترى؟

تقرب منهم وقال: "وأخيرا.. انتهينا".

أجابت سما: "الحمد لله.. كيف كانت إجاباتك؟".

"تسمح لي بالنجاح.. على ما أظن". أجاب بلا مبالاة.. لم يكن يهتم كثيرا؛ فحال تخرجه سينظم للجيش العراقي من أجل الدفاع عن أراضيه.

قالت نور الصديقه المشتركة بينهما: "إلى متى سنعيش هذا العذاب؟ كل البيوت اتشحت بالسواد".

تنهدت سما وقالت: "ليس بيدنا سوى الدعاء. كما أني لا أريد أن تنتهي هذه السنة ولا أريد التخرج.. لم أعد قادرة على الفراق أكثر".

فهم إحسان ما كانت تحاول قوله؛ فاجاب: "لا تقلقي.. إذا ذهبت حتما سأعود.. لن أموت قبل أن أتزوجك".

ابتسمت بشفاه تحيطها الحزن وقالت: "وأنا أؤمن بذلك".

قاطعتهم نور وقالت: "لمَ لا تتزوج قبل أن ينظم للجيش.. أليس أفضل؟".

قال إحسان رأسا: "ليس أفضل.. لو مت هناك ستصبح أرملة.. وأنا لن أسمح بهذا مطلقا.. إذا عدت نتزوج وإذا لم اعد ستنساني يوما وتبدأ حياتها من جديد".

أجابت سما: "هل تتكلم بجدية؟ هل تعتقد أني سأحب أحدًا بعدك؟ مستحيل؛ إما أنت، أو لا أحد.

"مجنونة".. قال إحسان ثم أكمل: "إذا انتهينا من الحديث لنفترق ونلتقي يوم خطبتنا.. ستكونين موجودة يا نور.. صحيح؟".

"طبعا.. وهل أفوت مشاهدة تتويج عشقكم الأسطوري هذا".

ضحكت سما، وهي تودعها على أمل لقائهما الأسبوع القادم.. أخذها

إحسان وأوصلها إلى المنزل.. تفقد مع والدها آخر الأمور من أجل الخطبة وعاد لمنزله.

عاش إحسان وسما قصة حب منذ أول مرحلة في الجامعة بعد تعرفهما تقاربا كثيرا..ومما أكد انهما سيكونان لبعض الصدفة التي لعبت دورًا في ذلك؛ فتبين أنهما أقرباء من بعيد فكانت علاقتهما أكثر قوة، حتى جاء اليوم الذي فاتحها فيه إحسان عن نيته في التقدم لطلبها بعد أن حدث والديه بذلك ولقي موافقة فورية.

حكايتهم من الحكايات التي تتعثر بالمطبات أمامهم بل بالعكس كانت سلسة في تقدمها، وهو دخل من الباب مباشرة.

جاء موعد الخطبة الذي كان هادئا نوعا ما بسبب الظروف غير الطبيعية التي يمرون بها فاقتصرت على الأقرباء المقربين فقط.. ومن أصدقائهم لم يكن هناك سوى نور.

لبست خواتم الخطبة وعليت الزغاريد وأصوات التصفيق والتهاني. التبريكات التي تمنوا لهم فيها أطيب الأمنيات. كان يجلس بجانبها يتهامسان بكل رقة وابتسامة خجولة ترتسم على شفاه سما قالت له بهمس: "يكفيك حديثًا عيون الجميع علينا وأنا أخجل.. تراهم ماذا يفكرون؟".

أجابها قائلا: "ما الذي سيقولونه مثلا.. اثنان خطبا للتو.. يعشقان بعضهما.. مايقولونه ليس مهما، بل ماذا سنفعل نحن؟".

بان على وجهها علامات تعجب على ما كان يقوله ويلمح به.. ثم قالت: "إياك يا إحسان والتفكير بجنون.. إياك.. ما زلنا في بداية الطريق".

ضحك.. هو يعرف أن دماغها تذهب شمالا. قال مازحا: "لم أقصد شيئا..

أنت دائما تظنين السوء بي".

"وأنت دائما تمزح بثقل معي". أجابت هي.

بعدها أحضروا سفرة الطعام، وتجمع الحاضرين من أجل العشاء المقيم على شرف خطبة إحسان وسما.

مرت الأيام وعادت الحياة الجامعية من جديد.. هنأهم الزملاء وبدأ النصف الثاني، لكن كانت بدايته مفجعة فقد وصل لهم خبر وفاة ابن عم سما الذي كان يقاتل في جبهات المعركة، واتضح أنه قتل بعد تعذيب شديد له من العدو. وحتى وصل إلى التمثيل بجثته.. كانت خبرا مؤلما بجد لان سما ليس لديها إخوة وابن عمها هذا كان أقرب لها من أخ كبير تأثرت جدًّا بموته.. حتى إن المرض الم بها لفترة كبيرة. بينما كان إحسان يحاول أن يقف بجانبها ويسليها على فيدانها أخاها وابن عمها.. كان الحمل أثقل عليه فقد بين جامعته وبين خطيبته.

تعب كثيرا حتى أقنعها بأن تعود من جديد كما كانت.. حتى إنه هددها بتركها لأنها لم تترك له أي حل غير ذلك.. التهديد نفعها، وعادت تدريجيا إلى طبيعتها. وأكملت دراستها تلك السنة حتى حفل التخرج لم يكن له أي معنى في ظل تلك الأوضاع.

في اليوم الذي يسبق أول امتحان نهائي لهم. كانت سما تجلس في كافتريا جامعة بغداد، وبجانبها كالعادة نور تشربان الشاي وتتحدثان عن بعض المواد الدراسية وعن استعدادهم للامتحانات. قاطعهم إحسان قائلا: "لقد وصلني البارحة التبليغ بالالتحاق بالجيش حالما تنتهي الامتحانات".

توسعت عينا سما وقالت: "يعني متى بالظبط؟".

قال إحسان: "بعد عشرين يوما بالتمام والكمال".

"يا إلهي". نطقت سما.. "يعني لن استطيع قضاء غير يومين فقط قبل أن تلتحق وبعد أن ننهي الامتحانات".

أجاب إحسان: "بالكاد.. سأحتاج ليوم أيضا من أجل تحضير الأوراق القانونية للالتحاق أيضا.. متى ستنتهي هذه الحرب يا ألله.. سنين ونحن ندفن شهداءنا ونرسل شبابنا إلى حتفهم. اللهم متى تتوب عنا وننهي غضبك هذا". قالت نور: "ليس بأيدينا حيلة.. لن نترك أرضنا للغرباء مثلا.. لكن يجب أن ندعي لهم بالانتصار وعودة ما تبقى سالمين".

تنهدت سما وقالت: "لا أدري كيف سنقضي فترة الامتحانات ونحن سمعنا للتو هذا الخبر يا إحسان".

رفع كتفيه بلا مبالاة فمابااليد حيلة.

انتهى العام الدراسي.. وكان لا بد أن يلتحق إحسان لتأدية واجبه الوطني كانت في الليلة التي سبقت رحيله.. يجلس مع سما في صالة الضيوف ممسكا بيديها الاثنتين قائلا: "تعلمين كم أحبك.. وأنا محظوظ جدًّا لارتباطي بفتاة مثل جمالك وأخلاقك.. فقط أريدك أن تعرفي حقيقة واحدة، أن من على الجبهات لا توجد وعود. فلا أعدك بعودتي. ولا أعدك أنني قد أرجع نفس الشخص الذي عليه الآن، سمعت من الكثير أن الجنود تتغير طباعهم ونفسياتهم بعد رؤية، الدم والموت الذي يحيطهم. فإذا أطلت الغياب، ولم اعد، فلك كل الحق بأن تكملي حياتك".

لثمت شفتيه بيديها وأسكتته عن متابعة ما يقول وقالت له: "إياك أن تكمل. فقلبي لن يملكه سواك، وسأظل أنتظرك طوال العمر.. ولا تدع الأفكار السلبية تطرأ حتى على بالك. ستعود حتما سالما وسنتزوج ونرزق بأطفال. وسنبدأ من حيث توقفنا كأن شيئًا لم يكن".

أمسك بيدها وقبلها.. احتضنته هي بكل قوتها. لم يتحمل قربها. التهم شفتيها كانه يشحن كل طاقته منها. ابتعد عنها وهي خجلة.. هذه أول مرة يقبلها به. احمرت وجنتاها وتوترت.. رفع دقنها بيده ليتابع النظر في عينيها وقال: "ستكون هذه القبلة هي المعجزة التي ستبقيني على قيد الحياة لأعود لك".

ودعها بدموع لا تتوقف وبتنهيدات صامتة تأبى الخروج. والتحق في اليوم الثاني وكان مركزه مدينة كركوك العراقية.

*****

الحرب وما أدراك ما الحرب.. الحرب أولها نار وآخرها رماد. ما من أحد ربح حربًا قط.. حتى الرابحون خاسرون. لا أحد يخرج من الحرب سليما إلا وقد فقد شيئًا ثمينا فيها. نحن نحارب بدمائنا حتى يعلق على صدر القادة أنواط الشجاعة.

كم من بيت توشح بالسواد، وكم من أم فقدت وليدها وأخت لأخيها وزوجة لزوجها، وابن لوالده.. كم من الدموع سكبت على قبور لا تحتضن في داخلها جثثًا كاملة.. كم بطل غاب عن بيته لسنوات ولما عاد ما كان هو كما كان ولا أهله عرفوه كما كان. الحرب يا سادة مقبرة الأحياء والأموات.

في تلك السنة كانت قوات كلا الطرفين تحرزان تقدما في أراضي الاثنين. فقد

استطاعت إيران وقتها أن تتقدم حتى الفاو ووضعت يدها عليه وانتشرت قواتها هناك. ولم تستطع القوات العراقية رد الهجوم بل كان سبب سقوط الفاو هو أن حمايتها كانت تحت قيادة الجيش الشعبي الذي كان ضعيف التدريب بالعكس من الحرس الجمهوري العراقي الذي كان عالي التدريب، وكذلك لم يدرك القادة العراقيين ثقل الهجوم الذي كانت تعد له إيران حتى بعد سقوط الفاو.

كانت الأخبار التى تصل إلى الشعب مخيفة في بعض الأحيان، وخاصة إذا لم تصلهم أي أخبار من شبابهم الذين يقاتلون في ساحات المعارك.

لكن بسبب بطولات رجال العراق الشامخين.. أسود الرافدين.. استطاعوا أن يوقفوا التمدد الإيراني أكثر ومنعوهم من الشمال والوسط.. فاستطاعو دخول الأراضي الإيرانية من طرف السليمانية ثم بعدها طوروا خطة جديدة وأدركوا ما هي نقاط ضعف الجيش الإيراني. استعادوا الفاو منهم من جديد بقيادة فرقة نبوخذ نصر.وعادت الفاو لأرض العراق.

كما شنت أيضا هجمات بالطائرات استطاعت بذلك شل حركة الجيش الإيراني. أضعافه على الحدود بقط الجسور التي كانت توصل لهم ومؤن العدكريع الغذائية. وحتى استطاعوا الدخول إلى الكثير من الأراضي الإيرانية وقتها.

لكن الإيرانين لم يتوقفوا.. شنوا هجوما آخر لكن تصدى لهم الجيش العراقي ب ٤٠ ألف مقاتل.. حتى وقف إطلاق النار في ٨ من أغسطس. وكان النصر للعراق لكن بعد خسارة أكثر ٣٤٠٠٠٠ شهيد وآلاف الأسرى الذين بقي بعضهم مفقودا إلى حد الآن لا يعرف ما كان مصيرهم.

أفراح وأهازيج تنتشر في كل مكان.. رقصات شعبية ودق الطبول أغاني

تسمع كلماتها بفم الأطفال قبل الكبار. الكل ينتظر أحبته الغائبين في جبهات القتال ينتظرونهم محملين بسلات مليئة بالحلويات ليرشوه في السماء عند قدومهم.

الأنظار على الأبواب دائما، يقفزون عند سماعهم صون الهاتف الأرضي.. حين يرن.. ربما يجلب لهم الأخبار السارة وكل هذا ولا يوجد أي خبر عن إحسان.

بعد أكثر من أسبوعين من وقف إطلاق النار وعودة الجنود إلى مدنهم وقراهم. ما زال إحسان لم يعد ولا يعرفون أي شيء عنه.

رن الهاتف في منزل سما.. أجاب والدها. تحدث قليلا حتى أتت هي، كانت علامات وجهه لا تبشر بالخير أبدا. كان كل ما يلفظه هو.. "نعم، حسنًا، الله كريم، إن شاء الله".

أغلق الهاتف وأحست سما بأن صدرها ينقبض. لا بد أن خبرًا ما سيئًا للغاية حتى إن والدها تعكرت تقاسيمه. قالت له: "من كان المتصل يا أبي".

أجابها وهو لا يستطيع النظر في عينها: "كان والد إحسان يا ابنتي".

"وماذا هناك؟ هل إحسان بخير؟ هل لديهم أي معلومات عن تأخره؟ أين هو الآن؟ هل عاد؟

"لا". أجاب بحرقة.. "لم يعد، سيذهبون للسوال عنه في مقر الحزب، حيث وصلت أوامر لكل أهالي الجنود الذين لم يعودوا لمنازلهم أن يسجلوا أسماءهم في مقرات الحزب القريبة منهم مع صورة للجندي".

لطمت سما على صدرها بقوة.. أحست أن الذي يفعلونه سدى لا بد أن إحسان قد أسره الجيش الإيراني كما أسر الكثير قبله.. قالت والدموع تنهمر من

عينيها: "لا بد أنه أسر إحسان.. لن يعود يا أبي.. إني أشعر بهذا".

وبدأت بنوبة من الهلع والبكاء.. لم يستطع أحد تهدئتها حتى أغشي عليها ونقلت إلى المشفى. بقيت هناك ليومين قال الطبيب إنها عُرِّضت لانهيار نفسي إثر صدمة ما.

كان وقع الخبر عليها مؤثرًا جدًّا، ها هي تخسر رجلًا آخر كان مهمًا في حياتها.

لشهر وأكثر وأهل إحسان يبحثون عنه دون جدوى، حتى وصلت لهم أخبار من منظمة الهلال الأحمر أنه اعتقل ويعتبر أسيرًا بيد القوات الإيرانية. وقد أخبروهم أنهم سيفعلون ما بيدهم لمساعدة الأهالي في استرجاع أولادهم.

وبسبب هذا الخبر عُرِّضت والدته لجلطة في الدماغ أقعدتها الفراش لمدة طويلة حتى وافتها المنية بعد سنة من فقد ولدها. وأما والده فكان بحالة يرثى لها ولم يبقِ إخوته بابًا حتى طرقوه وما من مجيب.

سما عاشت أصعب أيام حياتها؛ فقدانها لحبيبها وخطيبها كان له أثر كبير عليها لم يمر يوما إلا وكانت تبكي فيه. تتذكر أيامهم وحديثها معه. تجلس قبالة النافذة طويلا تنتظر بعيون تبحلق في الفراغ الذي تركه إحسان بعد غيابه.

ذات مساء جاء والدها، جلس بجانبها يحدثها وقال: "إلى متى ستبقين على هذه الحال يا ابنتي، ما زلت فتاة شابة في مقتبل عمرها. وما زالت الحياة أمامك لن أدعك تدفنيها مع إحسان".

نظرت له باندهاش حين قال ذلك.. كأن إحسان مات ودفن.. أجابت هي بغضب وقالت: "إحسان لم يمت يا أبي إحسان ما زال على قيد الحياة لكنك لو أصريتم علي هكذا أكثر. ستدفنونني أنا قبله.. هل فهمت؟".

تركته ودخلت إلى غرفتها.. عاتبته الأم وأخبرته أن يبتعد عنها هذه الفترة.. تحتاج إلى الوقت حتى تعود إلى صوابها فاستسلم الأب للامر بالرغم من انه يحزن جدًّا على ابنته وما حدث لها.

كانت أمها تقول دائما: "الحمد لله أنها لم يتزوجا وإلا كانت ابنتها ستصبح معلقة بين السماء والأرض؛ لا هي أرملة، ولا هي زوجة عادية".

مر الكثير من الوقت وكما الوقت يشفي الجروح؛ فالوقت يقلل من آثار أي شيء على الإنسان.. وبدأت سما تستعيد نفسها رويدا رويدا.. وخاصة بعد أن بدأت بالعمل لكنها رفضت فكرة الارتباط بآخر لأنها تنتظر عودة إحسان.. كانت تذهب مع والده وأخيه كلما سمحت الفرصة للسؤال عند منظمة الصليب الأحمر، وبعد ثلاث سنوات.. وصلت رسالة منه إليهم

كانت هذه الرسالة عبارة عن أمل تجدد في قلوبهم جميعا.. كانت الكلمات قليلة لكنها تؤكد بقاءه على الحياة كما أتى على ذكر سما وكان قد أخبرها أنها لو تريد أن تكمل حياتها من دونه فهو يتفهم جيدا هذا الأمر. ولن يكون حزينا لو فعلت.. لأن لا أحد يعرف متى سيعود.

كان إحسان مسجونا في معسكر اسمه "اراك" تحت الأرض مخصص للسياسيين والوطنيين الذين لم يستسلموا وحاربوا لآخر طلقة في بنادقهم، ولا يعرفون فيه الليل من النهار.. عانى من التعذيب والترهيب، كانوا يجلدونهم.. ويحرقونهم في بعض الأحيان بالسكائر أو يقومون بإحماء أسياخ حديدية ثم لصقها على أطرافهم أو صدورهم. كانوا يغرقونهم في مياه ثلجية في الشتاء أو يجلسونهم على أرض مصنوعة من الحديد في الصيف فيحترقون فيها.

كانوا يقولون له إذا شتمت العراق سوف تعيش برفاهية، ولكن كان يرفض هذا الأمر لذلك قطعوا عنه الغذاء، وبدلا من ثلاث وجبات كان يعطونه وجبة واحدة، و منع عنه الاستحمام و النوم والاسقرار حتى وصل الأمر إلى أربعة أشخاص ينامون على سرير واحد.

كان قد سلم أمره لله؛ فكان دائما ينتظر الشهادة وقد كتب لعائلته في الرسالة التي أوصلها عن طريق الصليب الأحمر "أن يعتبروه شهيدا لو طال في المكوث بالأسر لأن هذه نهايته".

فكم من أسير استشهد في معسكرات الأسر وفقدوا أرواحهم بسبب التعذيب الذي لم يتحمله خاصة كبار السن منهم.

بعد سبعة أعوام

من دون أي ميعاد.. سمعت طرقات على الباب الحديدي الخارجي لمنزل إحسان ليخرج طفل صغير ذو أعوامه الحادية عشرة ويفتح الباب.. فيلاقي رجلين أحدهما ببدلة عسكرية والآخر بثياب قديمة شعره طويل نوعا ما بلحية نامية على وجهه قد غطت الكثير من معالمه.. هزيل منحني الظهر متعب.. لكن ببسمة خفيفة على وجهه فقال له الطفل الصغير: "من أنت وماذا تريد؟".

أجابه الرجل ذو البدلة العسكرية: "أليس هذا منزل الحاج رضوان؟".

هز الطفل رأسه إيجابا.. ثم سأله الرجل مرة أخرى: "من أنت؟".

قال الطفل: "أنا سمير، ورضوان جدي".

وقبل أن يكمل حديثه خرج والده خلفه ليرى من على الباب وهو يقول: "سمير، من هناك؟".

ليجيب الطفل ببراءة: "لا أدري يا أبي".

ارتسمت ضحكة على وجه الرجل.. إنه لا يعرفه بالطبع.. إنه طفل لا يعرف حتى وجه عمه.. أتى والد سمير وتوقف أمام الباب ليرى من هناك وقال: "أهلا يا سيدي".

اجاب الرجل ذو البدلة العسكرية: "أنا العريف حمدان والذي معي يدعى إحسان رضوان الذي كان أسيرا في إيران".

سكت الأخ دون أن يجيب بكلمة لصدمته.. قاطعهم إحسان وقال: "أنا إحسان.. يا أخي يبدو أن لا أحد سيتعرف بشكلي هذا".

لم يصدق الأخ بما تراه عيناه؛ فذهب ليضم أخاه إليه ويصرخ بأعلى صوته: "إحسان قد عاد يا أهل الدار.. أخي قد عاد سالما".

كانت عودته لأهله ولسما حقيقة مبهجة للغاية، لكنها كانت ناقصة.. جدًّا.. كان يحيطونه من كل جهة حتى صاح فيهم والده ليتركوه حتى يستحم و يحلق ذقنه ويرتاح ثم سيحدثهم بكل شيء: "هيا يا أمير.. ساعد إحسان".

كان كل من في البيت سعداء جدًّا لكن الشفقة في عيونهم تؤكد الحزن الذي قتل الفرحة قبل أن تكتمل.. وأول الأمر أن يخبروا خطيبته لأنها كانت تنتظره بالصلاة والأمل كل هذه الأعوام.

صرخ إحسان وقال: "لا تخبروها.. لا أريد أن تراني هكذا".

أجاب الأب: "لا بد من إخبارها أنها تنتظرك كل هذه الأعوام.. لن تقرر عنها فيحق لها أن تختار".

تنهد إحسان.. ليس لديه القوه على المناقشة.. نهض متكئًا على أمير وقال: "افعلوا ما يحلو لكم".

يخرج من حمامه مرتديا سترة رياضية باللونين؛ الأبيض والأزرق الغامق.. تبدو عليه كبيرة بعض الشيء مع أنها كانت له.. حلق لحيته وسرح شعره.. ظهر من تحت ذلك الحطام رجل آخر جلس على الأريكة بمساعدة أمير؛ أخاه الأصغر سنا منه.

تقف سما أمامه مدهوشة مصدومة لما تراه عيناها كان الصمت مخيمًا على تلك الصالة.. لم يستطع أحد أن يقول لها أي شيء.. حتى ترى بأعينها.

قال إحسان: "ما بكم.. لماذا صمتم كلكم هكذا.. قبل ساعة كنتم تتحدثون جميعكم بنفس اللحظة".

لم ينطق أحد.كل الأنظار معلقة على سما والآذان تصغي لما ستقوله...

"إحسان".. صدر اسمه من بين شفتيها فاهتزت كل أطرافه.

"أنا سما يا إحسان".. قالت.

تقدمت منه ببطء.. أمسكت بيده.. سحبها منها.. ذرفت دمعة من عينها.. ففهم الكل أن عليهم أن يتركونهم وحدهم وخرجوا جميعا من الصالة تاركين سما وإحسان وحدهم.

كان الصمت الذي بينهما غامضًا جدًّا.. بل مظلمًا كظلام ليل أو كالعتمة التي يعيشها إحسان منذ وقت طويل.

تجلس بجانبه تتردد في التقرب منه.. وهو لم ينطق بكلمة بعد. ليس هناك إلى كلام يشرح ما في داخله وما عاناه. يريد فقط أن ينام ويصحى وكان كل ما مر به

حلمًا فقط.. أو كابوسًا.

مسحت الدموع من عينيها وقالت بعد أن شجعت نفسها: "كيف حالك يا إحسان.. أنا كنت متأكدة أنك ستعود يوما".

لم يرد.. أكملت هي قائلة: "ألن تتحدث معي، ألست سعيدا برؤيتي. أنا أعلم أنك متعب، لكني اشتقت لك كثيرا".

اجابها بحدة قائلا: "لماذا يا سما".

قالت سما: "كيف؟ لماذا يعني؟ لم أفهم".

"لماذا لم تتركيني وتشبثت بي؟ يبدو أنك خسرت سنين من عمرك.. لست أنا احسان نفسه الذي رحل.. أنا شخص آخر".

أجابت هي: "لأني أحبك.. لطالما أحببتك.. لهذا كنت على يقين بأنك ستعود ونكمل من حيث توقفنا".

"هراء".. قال هو.

"أنا أعمى يا سما.. من سيربط نفسه برجل مثلي.. لو كنت عدت كما أنا لكان أسهل، أما الآن فلا".

قالت هي: "وأنا أحببتك لشخصك وليس لشكلك وما أنت عليه.. إحسان، أنا سابقى أحبك، لكن يبدو أنك تحتاج للراحة وأن تعيد التفكير بكل ما قلته الآن".

قال ضاحكا باستهزاء: "يبدو أنك لا تفهمين أو لا تريدين الفهم.. أنا اعمى. لن أنفع كزوج أبدا.. اقدر لك كل هذه السنين التي قضيتها في انتظاري، لكن لم يفت الأوان، ما زال هناك الوقت لكي تبدئي من جديد وتؤسسي عائلة مع

غيري".

نهضت سما من جانبه وقالت: "يبدو أنك أنت من لا تفهم.. لست أنا من تترك حبيبها في أصعب أوقاته.. سأتركك ترتاح، ثم نتحدث في وقت آخر.. الحمد لله على سلامتك".

تركته وخرجت تركض.. أوقفها والد إحسان وقال: "لا تحزني.. لا أحد يعلم سوى الله بما عاناه.. لقد تحملت كثيرا فإذا أردت أن تتحملي أكثر سيعود إليه عقله.. وإلا لا أحد سيعاتبك لو تركته".

ابتسمت من بين دموعها.. وأخذها والدها عائدًا بها إلى المنزل.

*****

عرض إحسان على أكثر من متخصص بطب العيون وكان جميعهم يقولون إن ما من جدوى لأي عملية تجرى له.. بات محكوما بالظلام طوال عمره.

كان قد تغير كثيرا.. لم يعد إحسان نفسه الذي عرفوه الرجل المرح الذي كان المزاح لا يفارقه، أما الآن فهو صامت معظم الوقت ومهموم. لم يقابل سما إلا مرتين بعدها وفي المرتين كانت باردة جدًّا..

كان هناك قرار جمهوري أن كل من عُرِّض لأي إعاقة بسبب الحرب سوف يتسلم راتبًا شهريا طوال عمره لقاء ما خسره من أجل تربة البلاد والدفاع عن شرفها. وفي حالته هذه التي لا تسمح له للعمل.

بعد انقضاء أشهر سته طويلة جدًّا.. دخل والده إلى غرفته ذات مساء وقال له: "يا بني.. أود أن أحدثك بأمر ما".

استدار إحسان إلى مصدر الصوت وقال: "تفضل يا أبي.. كلي آذان صاغية.

جلس بجانبه على السرير تنفس بعمق ثم قال: "أريد أن أحدثك بعلاقتك مع سما.. كما ترى هي لم ولن تتركك كما يبدو. وأظن مثل هده الفتاة ستكون سندا كبيرا لك في المستقبل.. إن من مثلها قليلات جدًّا يا بني.. أرى لو أنك تكمل الطريق معها وتتقفا على الزواجح فهي ستصونك وتهتم بك.. لن أدوم لك يا بني.. وكل من إخوتك له عائلة يهتم وتهتم به.

أطرق إحسان رأسه إلى الأسفل وقال: "أنا خائف يا أبي أن أصبح عالة على أي أحد. كم أتمنى الموت على هذه الحالة.. كنت أتمنى الموت هناك في الأسر لشدة العذاب الذي رأيناه وما سببه لي من أذى.. أخاف أن تعيرني يوما ما بإعاقتي.. أو أنها متشبثة بي الآن لأنها تشفق علي فقط.. أنا خائف بل أنا جبان جدًّا أن أعترف لنفسي بهذا أيضا".

وبدأ يبكي بحرقة حتى احتضنه والده وطمأنه أن سما ليست من هذه النوعية.. لو كانت كذلك لتركته منذ زمن..

فكر كثيرا. ثم طلب مقابلة سما وشرح لها مخاوفه وهي طمأنته بأنها ستقف بجانبه.. واتفقا على إكمال إجرإت الزواج.

عارض والدها الأمر في البداية خوفا على ابنته، لكن سما كانت متمسكة بحبها لإحسان، وكانت ستفعل المستحيل حتى تصبح ملكه.

تزوجا، وكان يوما ما أسعده من يومها أصبح الاثنان جسدا واحدا. اتفقا أن يعيشا في الطابق الأعلى لمنزل عائلتها لأنها البنت الوحيدة لهما ووالدها رجل متقاعد وسر بوجودهم وسكناهم معهم.

كانت سما تعمل في مختبرات لتنقية المياه في دائرة صحة بغداد وراتب الذي كان يأخذه إحسان من الحكومة كانت حياتهما تسير بخير حتى جاء اليوم الذي رزقا بها بفتاة جميله جدًّا، وتغيرت حياة إحسان منذ ذلك اليوم وبدأ يصبح أكثر شبها من نسخته القديمة.. وبعد سنتين أنجبت سما توأمًا "ولدين". فكبرت عائلتهم.. كمثل كل العائلات لم تخلوا من المشاكل لكنها لم تخلو من الحب أيضا.

وتمر السنوات والأطفال يكبرون.. لكن ما إن تستقر حياتهم أكثر حتى بدأت حرب ٢٠٠٣ واحتلال أمريكا للعراق. فبعد هذا اليوم تغير كل شيء.

كانت الأحوال مخيفة والقتل والسلب والاختطاف بكثرة ولخوفهم الكبير على أولادهم.. قرروا السفر إلى لبنان وتقديم ملفهم إلى الهجرة.. وهكذا خلال أسبوع تم السفر في بداية عام ٢٠٠٥.

سجلو في اليو أن UN ومع المساعدات التي كانوا يتلقونها والمدخرات التي كانوا قد أخفوها استطاعوا تدبير أمورهم لما يقارب السنة حتى جاء الوقت وسافروا إلى الولايات المتحدة وبدأت هناك حياة جديده لهم.

لكن إحسان لم يتخلص من عقدة إعاقته.. لأنه لم يستطع يوما أن يعمل ويعيل عائلته كما فعلت زوجته طوال أعوام.. كانت المنظمات الخيرية تشفق عليهم لأن رب أسرتهم أعمى.. حتى عاد وصولهم إلى أمريكا.. خصص له راتب تقاعدي بسبب إعاقته.

كان يرى أولاده وابنته يعملون ويخرجون ويقودون سياراتهم وهو لا يستطيع الحراك إلا بمساعدة أحدهم، حتى زوجته تعلمت السياقة وقادت سيارة وهو يجلس بجانبها كأي تمثال يزين المكان فقط. وهذا ما كان يحز في نفسه كثيرا

فأصبح عصبي المزاج جدًّا.. تغير ١٨٠ درجة في بلد لا يعرف لغته ولا يعرف أحد فيه.

حاول أن يعود للعراق أكثر من مرة ونشب عراك في المنزل بسبب هذا القرار، لكن في كل مرة يخسر الجدال لصالح أولاده، حتى جاءت سما زوجته التي تحملت الكثير من أجله، بكل حب، بخبر غير مجر حياتهم.

أطلعتها إحدى زميلاتها على عنوان طبيب مشهور أخصائي عيون، وكان سيطه يسبقه في العمليات الناجحة التي كان قد أجراها وأعاد البصر لكثيرين؛ فكادت تطير من السعادة عندما وافق أن يذهب ليراه الطبيب ويكشف عليه عله يعيد النظر إليه بعد أن كان قد يأس من عودة النور إلى عينيه.

كان يجلس على كرسي في صالة الانتظار.. تجلس بجانبه زوجته وابنته.. ترتعش قدمه وساقه بسبب التوتر.. تمسك سما يده وتهمس بقربه وتقول: "لا تقلق.. أنا متفائلة جدًّا.. سمعت أنه فعل المعجزات".

أجابها هو وقال: "لقد فات الكثير من الوقت وأنا أعيش في عتمة لا متناهية، حتى نسيت ما هي الألوان".

ربتت على يده وقالت: "لم تنسها، أنا واثقة أنك ستعود وترى حتى لو بصيصا من النور فقط.. آمن بقلبك".

ابتسم إحسان وسكت حين ندهت الممرضة اسمه لتدخله إلى غرفة المعاينة، وابنته كانت معهم بصفتها مترجم لوالدها.

كان الطبيب يفحص عينيه بجهاز متطور للغاية، ثم وضع قطرة في عينيه وعاد لينظر إليها من خلال نفس الجهاز.

بعدها أبعد الأجهزة من أمامه.. وأخذ ضوءًا حادًّا كأنه أحد أنواع الليزر، ووجهه إليه وبيده جهاز آخر صغير لكن يبدو غريبا بعض الشيء.. بمكبرات وعتلات يديرها يمينا ويسارا.

أخذ نفسا.. وترك كل شيء من يده وقال: "أنتم تعلمون أن الطب تقدم كثيرا.. وهناك طفرات طبية في علم العيون وجراحتها.. فيجب أن أقول لكم شيئا مهما. في كل عملية توجد مخاطر ونسبة فشل تتراوح بين ١٠ _ ٩٠. لكن في حالتك هذه يا سيد إحسان. فان نسبة نجاح عمليتك هي ٨٠ ٪ أو أكثر. لذلك أريد أن أبشرك وأقول. إذا لم يكن لديك مانع.. سنجري لك العملية خلال هذا الأسبوع إذا لم تواجهنا أي مشكلة طبية".

كانت الأنظار بين الأم وابنتها لا تفسر أبدا.. كانت الدهشة التي رسمت على وجه إحسان لم يرَها أحد منذ سنين طويلة كانت سعادتهم لا توصف بالخبر الذي تلقوه كأسرة وبدأوا بالحال بإجراء كل الفحوصات الطبية التي طلبها منهم الطبيب ليتحضر من أجل العملية.

خلال أيام دخل إحسان إلى المشفى من أجل الخضوع لعمليته التي كان ينتظرها لوقت طويل وكادت تصبح حلما صعب المنال.

قبل أن يدخل إحسان إلى غرفة العمليات وقفت بجانبه سما وقالت: "مهما كانت النتيجة لو خرجت كما دخلت.. لا سمح الله أو عاد لك نظرك. ستبقى كما أنت في نظري".

أمسك بيدها وقبلها.. شكرها ثم أدخلوه إلى الداخل.. لساعات طويلة وهم يعملون على إعادة النور.. لعتمته الموحشة.. يخرجونه ملفوف العينين بشاش

أبيض ما زال تحت تاثير المخدر.. نائمًا بعمق على سدية العملية.

تلتف حوله عائلته منتظرين أن يستيقظ ليطمئنوا عليه بتساؤلات وأمنيات يتوسلون أن تتحقق.. لقد مر على زواجهم ١٨ عاما.. لم تتغير القلوب مقارنة بالوجوه التي اتعبها الحال ومامروا به.

استيقظ ببطء يشعر بألم في رأسه كان طبيعيا، ويجب أن يحدث، طمأنه الطبيب أنه سيختفي بعد ساعات وأنهم سيفتحون اللفاف بعد ٢٤ ساعة من انتهاء العملية.

كانت هذه ٢٤ ساعة طويلة أكثر من ٢٠ عاما التي مضت عليه أعمى.

عاد أولادها إلى البيت وأما هي فقد باتت معه في المشفى.. نهض عند منتصف الليل كان يريد أن يشرب.. قدمت له سما الماء وساعدته على الاتكاء لم يكن يريد النوم أكثر.. جلست بجانبه فقال لها: "هل ما زلت كما أنت. لا تعلمين كم مشتاق لرؤية وجهك الجميل".

ابتسمت سما وقال: "قد تتفاجأ قليلا. ربما فلست كما كنت عليه".

قال لها: "كم تغيرت مثلا. بضع تجعدات حول العين هذا طبيعي".

ضحكت سما وقالت: "تجعيدات حول العين والفم. جرح على جبيني حين سقطت من أعلى المكتبة لما كنت أرتبها أتذكر قبل سنين".

قال إحسان: "نعم أذكر.. ترك ندبة لا أستطيع تخيله".

قالت: "واحتراق ساعدي حين كان التوأم يلعبان في المطبخ وأنا كنت اعد الطعام وحتى لا يحترقا هما احترقت أنا".

تنهد وقال: "صحيح أذكر".

ابتسمت وقالت: "وشعري قد تناثر الشيب فيه فاصبح بلونين".

أجابها هو وقال: "أنا أيضا.. أخبرتني ابنتي بذلك.. هل تعتقدين أنك تغيرت هكذا.. ما زلت كما أنت".

لم تجبه.. كانت خائفة من أن يراها مختلفة وليس مثلما كانت؛ فقد نحت الزمن عليها لوحة جديدة عن النسخة الاصلية.

تركته وعادت إلى الأريكه التي كانت قد استلقت عليها وأغمضت عينيها، وهي تعد الساعات من أجل فتح الشاش عن عينيه.

يفتح عينيه ببطء يقف أمامه الطبيب والممرضة التي قصت للتو اللفاف عنه من الجهة الأخرى عائلته ممسكين بأيدي بعضهم بعضًا.. يتقرب منه الطبيب ويقول: "والآن يا إحسان افتح ببطء عينيك.. قد تنزعج من الضوء، لكن حاول أن تفتحها ببطء حتى تتعود عيناك النور من حولك".

هز إحسان رأسه بحماسة وبدأت أجفانه المغلقة تتفتح رويدا رويدا.. تحسس من الضوء على ما يبدو. عقدت حاجبيه.. كان يرى أمامه شبه أشباح بألوان براقة جدًّا. هناك ضوء قوي يتوسط الغرفة.. عاد وأغمض عينيه. شجعه الطبيب على فتحها مرة أخرى.

حاول مجددا.. هذه المرة وجد شخصًا على ما يبدو يرتدي الأبيض والأسود. ثم جال برأسه قليلا ليرى كما يبدو أربعة أشخاص بوجوه غير معروفة مشوشة تماما.. أعاد وأغلق عينيه مرة أخرى..

سمع صوت زوجته وهي تقول: "أخبرني يا إحسان.. هل ترى شيئًا ما؟ هل ترانا؟".

تنفس بعمق. وعاد مرة أخيرة فتح عينيه ووقع نظرة على امرأة تشبه فتاة أحبها كثيرا في شبابه، لكنها نسخة متغيرة كثيرا.. ابتسم. وقال: "سما".

ضحكت سما.. احتضنته وهي تردد: "الحمد لله".

أبعدها الطبيب بعد ثوانٍ. وأبعد أولاده الذين هرعوا لمعانقته.. وتعريفهم بأنفسهم لأنه أول مرة يراهم.

قال الطبيب: "سأضع لك هذه القطرة ونكررها ست مرات باليوم.. ثم نقلل قطرة كل يوم حتى نتوقف، وهذا سيساعد شبكة عينك لاستعادة قوتها.. لكن يجب أن ترتدي نظارات أيضا".

قال إحسان: "شكرا لك أيها الطبيب.. لم أتوقع يوما أني سأعود وأرى. وأخيرا أني أرى أولادي.. سأفعل أي شيء تقوله".

هنأه الطبيب ووعده أنه سيعود من جديد. والتمت حوله عائلته مجددا.. يحتفلون بعودة البصر لوالدهم الذي كان يرسمهم في مخيلته؛ فوجدهم أجمل بكثير من الخيال.. لكن كانت صدمته بالتغير الكبير الذي حدث لسما.

عاد للمنزل جميعا. احتفلو معًاا في مطعم فاخر ذات مساء على شرف إبصار والدهم.. عادت الدماء إلى شراينه، كأنه شخص آخر حقا.. كأنه للتو بدأ الحياة من جديد، كأنه ما زال بعمر العشرين.

بدأت حياة إحسان تتغير فعلا.. كان يخرج كثيرا ويتسلى.. لم تهتم سما في بادئ الأمر وأوعزت أنه يحاول ملء الفراغات التي قيدته لسنوات طويلة.. يحاول أن يكتشف العالم من جديد، كانت سعيدة لسعادته ولروحه الجديدة.. لم يخطر في بالها أي أمر سيئ أو أن هناك أمرًا خطيرًا على وشك الحدوث.

قرر ذات يوم أن يسافر إلى المانيا، كان قراره مفاجئًا. صحيح أن أخاه أمير يعيش هناك؛ فقد هاجر واستقر هو وزوجته قبل عدة سنين.

لم تستطع سما السفر معه لما خيرها إذا كانت تريد الذهاب لأنها كانت تعمل ولم يمنحها رئيسها إجازة، لكنها شجعته على السفر وحده هذه المرة وستذهب معه في سفرة أخرى.

وهكذا غادر إحسان امريكا متوجها إلى ألمانيا من أجل لقاء أخاه.. كان المقرر أن يعود خلال شهر، لكنه أجل عودته لشهر آخر.. تحدثت معه سما بعد أن أجل رجوعه لشهر آخر وقالت: "نحن نحتاج إليك هنا أيضا يا حبيبي واشتقت لك كثيرا.. ما الذي خطر في بالك أن توجل سفرك".

قال لها: "أخي أصر علي كثيرا، ولم اكسر بخاطره.. سوف أعود قريبا وقبلي الأولاد عني".

لم يتحدث معها أكثر وأغلق الخط.. تعجبت سما كثيرا من تصرفاته كأنه ليس إحسان زوجها. لم يسألها حتى عن حالها أو كيف تمر الأيام من دونه وهي تشتاق إليه كثيرا. ١٩ سنة لم يفترقا قط، وهذه أأول مرة بعد كل هذه السنين.

كانت تقاوم أفكار الشر التي سيطرت عليها، ووسوسة الشيطان التي بدأت تأكل رأسها. وانقباضات قلبها المستمرة بحدوث أمر تجهله، لكن تشعر به بلا شك.

بعد آخر مكالمة بينهما بأسبوعين تقريبا. وصلت لها رسالة قادمة من القنصلية الأمريكية في ألمانيا.. فتحتها وهي ترتجف خوفا على زوجها.. لم تستطع الاتصال به خشية أن تسمع أخبارًا غير سارة.

جلست على كرسي في المطبخ. فتحت الرسالة كانت عبارة عن ورقة تخبرها أن زوجها السيد إحسان يجري معاملات الطلاق من ألمانيا وهو يخبرها بذلك. وأن السيد إحسان لن يعود إلى أمريكا. بل سيستقر في ألمانيا.

أعادت قراءة الورقة من جديد.. لم تصدق ما تقرأه..أحست بألم شديد في صدرها. أخذت هاتفها ورنت على إحسان؛ ليجيب الأخير بكل برود.

" لا بد أن الرسالة وصلت إليك، سامحيني يا سما. لاأستطيع أن أكون زوجا لك بعد الآن.. لقد وقعت في الحب هنا.. وأريد أن أكمل حياتي مع المرأة التي عشقت.. واتمنى أن تتفهمي ما مررت به وما أمر به الآن.. ستبقين إلى الأبد أمًّا لأولادي".

كان شيئا مقرف ما يقوله لها. أحست بأن معدتها تؤلما وكادت تتقيأ. أغلقت الهاتف وذهبت مباشرة إلى الحمام.. أفرغت ما في جوفها. واتكأت على الجدار تبكي بحرقة. بعد كل هذه السنين التي قضتها في حب رجل لم يستحق كل هذا الحب. لم يكن فاقد البصر، بل كان القلب أعمى.

"أتعلم؟ سأخبرك بشيء أخفيته عنك في غيابك هذا.. سأخبرك حكاية امرأة أحبتك وأحبت أيامها معك.. لا بل عشقتها! كانت ضحكتها تنبع من قلبها في تلك الأيام حين كنت معها.. كانت تُحس بأنّها تملك الدنيا بما فيها لمجرد أن يدك تمسك يدها، كانت تخفي حزنها من أجل إلا تخدش فرحتك.. تضحك من أجلك.. تحاول جاهدة أن تكون سعيدة كي ترى سعادتك.. والآن هي تبكي في الخفاء لأجلك.. تبكي لأنّ الحزن خيّم على قلبها.. اشتقت لك حقاً.. كن بخير لأجلي.. أحبك يا أنا".

مقتبس.

تمت

# الفهرس

الإهـداء ..... ٥

قوانينُ الحبِّ: ..... ٩

حبٌّ من زمنٍ آخر. ..... ٣٣

عيد ميلادك الثلاثين ..... ٥٤

إني ملكك (اعترافات كاهن) ..... ٨٤

سارقة القلب. ..... ١١١

عشية عيد الميلاد. ..... ١٣٢

الابنة الفاضلة ..... ١٦٢

القلب أعمى ..... ١٨١

## رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.